مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة
للُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة عِلميَّة دَوْريَّة مُحكَّمة



العدد : 20
أبريل - يونيو 2026م

الجزء 1

Arcif
معامل التأثير والاستشهادات المرجعية العربي
Arab Citation & Impact Factor


الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
١٣٨١
١٩٦١


بسم الله الرحمن الرحيم

معلومات الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

النسخة الورقية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٣ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٧٦

النسخة الإلكترونية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٤ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٨٤

الموقع الإلكتروني للمجلة

http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة عبر المنصّة الإلكترونية

البحوث المنشورة في المجلّة تعبّر عن آراء الباحثين

ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

جميع حقوق الطّبع محفوظة للجامعة الإسلامية

هيئة التحرير

د. تركي بن صالح المعبدي

(رئيس هيئة التحرير)

أستاذ النحو والصرف المشارك بالجامعة الإسلامية

د. خليوي بن سامر العياضي

(مدير التحرير)

أستاذ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبد الرزاق بن فراج الصاعدي

أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبدالرحمن بن دخيل ربه المطرفي

أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية

أ.د. الزبير بن محمد أيوب

أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية

د. مبارك بن شتيوي الحبيشي

أستاذ البلاغة المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمد بن ظافر الحازمي

أستاذ اللسانيات بالجامعة الإسلامية

د. عبد المجيد بن عثمان اليتيمي

أستاذ أصول اللغة المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبدالله بن عويقل السلمي

أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. علي بن محمد الحمود

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. عبد الرحمن بن مصطفى السليمان

أستاذ اللّغات والآداب السامية والترجمة بجامعة لوفان – بلجيكا

أ.د. علاء محمد رأفت السيد

أستاذ النحو والصرف والعروض بجامعة القاهرة بمصر

أ.د. سعيد العوادي

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاضي عياض بالمغرب

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد بن يعقوب التركستاني

أستاذ أصول اللغة بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمد محمد أبو موسى

أستاذ ورئيس قسم البلاغة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

أ.د. تركي بن سهو العتيبي

أستاذ النحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. عياد بن عيد الثبيتي

أستاذ النحو والصرف بجامعة أم القرى

أ.د. سالم بن سليمان الخماش

أستاذ اللغويات بجامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. ناصر بن سعد الرشيد

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود

أ.د. منصور بن محمد الغامدي

أستاذ الصوتيات الحاسوبية بهيئة تقويم التعليم والتدريب

أ.د. عبد الفتاح محمد حبيب

أستاذ النحو والصرف والعروض بكلية الزقازيق بجامعة الأزهر

أ.د. حسن دربر

أستاذ الترجمة وعلم المصطلح بجامعة القاضي عياض بالمغرب

أ.د. عزالدين محمد المجدوب

أستاذ اللسانيات بالجامعة التونسية

أ.د. محمد بن صالح الشنقيطي

أستاذ النقد الأدبي الحديث بجامعة جدارة بالأردن

أ.د. صالح بن الهادي رمضان

أستاذ الأدب والنقد بجامعة تونس

قواعد النشر في المجلة (*)

- أن يكون البحث جديداً؛ لم يسبق نشره.
- أن يتّسم بالأصالة والجدّة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- ألا يكون مستلاً من بحوثٍ سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.
- أن يشتمل البحث على:

– عنوان البحث باللغة العربية وباللغة الإنجليزية.

– مستخلص للبحث لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.

– كلمات مفتاحيّة لا تتجاوز (٦) كلمات؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.

– مقدّمة.

– صلب البحث.

– خاتمة تتضمّن النّتائج والتّوصيات.

– ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية.

– رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.

- في حال (نشر البحث ورقياً) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نُشر بحثُه فيه، و (١٠) مستلات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤول حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقيّاً أو إلكترونيّاً، ويحقّ لها إدراجه في قواعد البيانات المحلّيّة والعالمية – بمقابل أو بدون مقابل – وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحقّ للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنّشر في المجلّة – في أي وعاء من أوعية النّشر – إلاّ بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة: https://journals.iu.edu.sa/ALS

محتويات العدد

م	البحث	الصفحة
١)	مقدمة في النحو للشيخ شمس الدين الكَلَائيّ (ت ٧٧٧هـ) دراسة وتحقيق **د. صالح بن حسين بن ناصر الحارثي**	١١
٢)	الرواية وقواعدها التوجيهية عند النحاس في إعراب القرآن دراسة نحوية **د. إبراهيم بن هادي محمد المباركي**	٦٩
٣)	عامل النصب في الظرف المستقَرِّ الواقعِ خبرًا عند سيبويه (دراسة وصفيَّة تحليليَّة) **د. موسى بن ناصر الموسى**	١٢٩
٤)	العلّة المخترعة عند الأعلم الشّنتمريّ في كتاب المخترع الممنوع من الصّرف أنموذجًا **غادة بنت سعد بن عبد الله السّعيديّ**	١٩١
٥)	اعتراضات الدَّماميْنِيّ الصَّرفيَّة على شرح الصَّفديِّ للاميَّة العجم ونقض ابن أقبرس لها **د. فهيد بن رباح بن فهيد الرَّباح**	٢٤٥
٦)	المفردة اللغوية الدّالة على الطّلب –دراسة نحويّة تداوليّة **د. أفراح بنت علي المرشد**	٢٧٥

م	البحث	الصفحة
٧)	مفهوم الإنصاف وتجلياته في شعر كعب بن معدان الأشقري الأزدي **د. مشاعل بنت علي العكلي**	٣٣٣
٨)	تداوليَّة الأفعال الكلاميَّة في الأحاديث النَّبويَّة عن الإبل **د. مشعل بن فيحان بن بلَّاش العصيمي**	٣٩١
٩)	وسائل الإقناع في الخطاب الحواريّ (نماذج من خطاب الوافدات على معاوية بن أبي سفيان ﷺ) مقاربة حِجاجيَّة **د. فوزيَّة بنت محمَّد بن إبراهيم البطي**	٤٦٧
١٠)	جماليات الفوضى والنّظام الخفيّ في لزوميات أبي العلاء المعرّي (قراءة جمالية تأويلية) **د. مطير بن سعيد الزهراني**	٥١٩
١١)	أثر استراتيجية تعليم الأقران في تنمية مهارات الحوار لدى طلاب العربية لغير الناطقين بها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة **د. أحمد بن محمد بن أحمد شيخ**	٥٦٧
١٢)	برنامج مقترح لتعزيز وعي طلاب الدبلوم العالي بتوظيف المهام اللغوية في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها **د. ماجد بن سالم بن جابر السناني**	٦١١

جماليات الفوضى والنّظام الخفيّ
في لزوميات أبي العلاء المعرّي (قراءة جمالية تأويلية)

The Aesthetics of Chaos and the Hidden Order in Abu al-Ala al-Ma'arri's Luzumiyyat A Hermeneutic-Aesthetic Reading

د. مطير بن سعيد الزهراني

أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الباحة –المملكة العربية السعودية

البريد الإليكتروني: mszahrani@bu.edu.sa

استلام البحث A Research Receiving		اعتماد البحث A Research Approving
04/01/2026		12/04/2026

نشر البحث
A Research Publication

محرم ١٤٤٨هـ = May 2026

DOI:10.36046/2356-000-020-010

المستخلص:

يتناول هذا البحث جماليات الفوضى في لزوميات أبي العلاء المعرّي بوصفها نسقًا جماليًا وفكريًا فاعلًا في إنتاج المعنى، من خلال قراءة جمالية تأويلية تُعنى باستكشاف انتظامها الداخلي وما تنطوي عليه من توتر دلالي خفي. ويقارب البحث الفوضى بوصفها بنية تتشكّل عبر الشك والمفارقة وبعض الظواهر الأسلوبية المرتبطة بالانزياح، مثل التكرار، بما يكشف عن وعي شعري يعيد تشكيل الدلالة خارج المسارات الخطية التقليدية.

ويعتمد البحث تحليل نماذج مختارة من اللزوميات للكشف عن تحوّل الفوضى الفكرية واللغوية والإيقاعية إلى آلية جمالية منتجة، تسهم في إعادة بناء العلاقة بين العقل واللغة والوجود داخل الخطاب الشعري عند المعرّي.

وينتهي البحث إلى قراءة ترى أن جماليات الفوضى في اللزوميات تمثّل بنية واعية تنتظمها قوانين داخلية، أسهمت في تشكيل خطاب شعري عميق يعكس فلسفة تقوم على الشك المعرفي والانضباط العقلي، وتفتح أفقًا تأويليًا يتيح قراءة النص في ضوء تداخل المستويات الجمالية والفكرية، ويعزّز من إمكانات الشعر العربي في استيعاب مفاهيم جمالية مركبة ضمن سياقات نقدية حديثة.

الكلمات المفتاحية: جماليات الفوضى، أبو العلاء المعرّي، اللزوميات، التأويل، إنتاج المعنى.

Abstract:

This study examines the aesthetics of chaos in the Luzūmiyyāt of Abū al-ʿAlāʾ al-Maʿarrī as an aesthetic and intellectual system actively engaged in meaning production, through a hermeneutic-aesthetic reading concerned with uncovering its internal order and the latent semantic tension it embodies. The study approaches chaos as a structure shaped through epistemological doubt, paradox, and certain stylistic phenomena associated with deviation, such as repetition, thereby revealing a poetic consciousness that reconfigures meaning beyond linear modes of construction.

The research relies on the analysis of selected examples from the Luzūmiyyāt to demonstrate how intellectual, linguistic, and rhythmic chaos is transformed into a productive aesthetic mechanism that contributes to restructuring the relationship between reason, language, and existence within al-Maʿarrī's poetic discourse.

The study concludes with an interpretive reading that views the aesthetics of chaos in the Luzūmiyyāt as a conscious structure governed by internal laws, which have shaped a profound poetic discourse reflecting a philosophy grounded in epistemological doubt and rational discipline. It further opens a hermeneutic horizon that allows the text to be read through the interplay of aesthetic and intellectual dimensions, while enhancing the capacity of Arabic poetry to accommodate complex aesthetic concepts within contemporary critical frameworks.

Keywords: Aesthetics of Chaos, Abū al-ʿAlāʾ al-Maʿarrī, Luzūmiyyāt, Hermeneutics, Meaning Production.

المقدمة:

تمثّل لزوميات أبي العلاء المعرّي نصًّا شعريًا إشكاليًا في بنيته، لما ينطوي عليه من توتّرٍ أسلوبي وتعدّدٍ تأويلي أربك القراءة التقليدية، وقد تناولت الدراسات هذا التوتّر غالبًا من زوايا فكرية أو بلاغية جزئية، دون الالتفات إلى أنّه يقوم على منطق جمالي يعيد تنظيم المعنى عبر كسر النسق المألوف.

وينطلق هذا البحث من تصورٍ يرى الفوضى في اللزوميات نسقًا جماليًا واعيًا، تتأسس فيه الدلالة على توتّرٍ خفيّ بين الانفلات والضبط، ويغدو القارئ شريكًا في إنتاج المعنى.

مشكلة البحث:

تنبع مشكلة هذا البحث من غياب قراءة جمالية تأويلية نسقية تُفسّر ما في لزوميات أبي العلاء المعرّي من تعقيدٍ لغويّ وانكسارٍ أسلوبيّ واضطرابٍ دلاليّ، إذ غالبًا ما عولجت هذه الظواهر بوصفها انعكاساتٍ فكرية أو نفسية منفصلة، لا بوصفها نظامًا جماليًا منتجًا للمعنى.

ومن هنا تتحدد إشكالية البحث في سؤالٍ رئيس: كيف تتحوّل الفوضى في اللزوميات إلى بنية جمالية قائمة على نظامٍ خفيّ، يُعيد تنظيم المعنى ويجعل الانزياح إطارًا تتجلى من خلاله آليات مثل التناقض، بوصفها عناصر فاعلة في بناء الخطاب الشعري؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحليل البنية الجمالية للفوضى في لزوميات أبي العلاء المعرّي، من خلال تتبّع آليات اشتغالها داخل الخطاب الشعري، ورصد أنماطها الأسلوبية المرتبطة بالانزياح، كالتكرار والمفارقة والتقابل الدلالي، والكشف عن علاقتها بالبناء الفكري والفلسفي للشاعر، بما يتيح قراءة جمالية تأويلية نسقية تبرز كيفية إنتاج المعنى داخل هذا النسق، وتُسهم في سدّ فجوة بحثية تتعلّق بدراسة الفوضى بوصفها مكوّنًا

جماليًا فاعلًا في تشكيل الدلالة الشعرية.

مبرّرات اختيار الموضوع وأهميته:

تنبع أهمية هذا البحث من إسهامه في إعادة توجيه قراءة لزوميات أبي العلاء المعرّي من المقاربات الفكرية الجزئية إلى تحليل بنيتها الجمالية العميقة، بوصفها بنيةً داخليةً منتجةً للدلالة، كما يقدّم إطارًا تأويليًا يُسهم في فهم آليات تشكّل المعنى داخل النص الشعري، ويعزّز من حضور المقاربات النسقية في النقد الأدبي العربي، إلى جانب فتح أفق قرائي يتجاوز الأحكام الجاهزة المرتبطة بالتشاؤم أو الاضطراب، نحو إدراك أكثر تركيبًا لطبيعة التجربة الشعرية عند المعرّي.

الدراسات السابقة:

تناولت الدراسات الحديثة لزوميات أبي العلاء المعرّي من زوايا معرفية وفكرية وبلاغية متعدّدة، دون أن تتناول جماليات الفوضى بوصفها بنية جمالية منظّمة. فقد ركّزت بعض الدراسات على البعد المعرفي، كما في دراسة محمد محمود ديور[١]حول الاستعارات المفهومية، ودراسة ثريا العباسي[٢] في الدلالات المعرفية، مع حضور فكري واضح مقابل غياب التصوّر الجمالي النسقي. واتجهت دراسات أخرى إلى

(١) محمد محمود ديور، "الاستعارات المفهومية في حقل الإنسان المفهومي في لزوميات أبي العلاء المعرّي: مقاربة معرفية"، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية ١٠، العدد ٤ (أكتوبر ٢٠٢٥م).

(٢) ثريا عبد الله عبد الباقي العباسي، "الدلالات المعرفية في شعر أبي العلاء المعرّي: اللزوميات أنموذجًا"، مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة، العدد ٥١ (أغسطس ٢٠١٢م).

المقاربة الفلسفية، مثل أعمال نبيلة نصّاح[٣] ونادية الصاعدي[٤] وأسماء بوسعيد[٥]، التي قرأت اللزوميات في إطار القلق الفكري والتأمّل الوجودي، دون النظر إلى الفوضى بوصفها خيارًا جماليًا واعيًا، كما عالجت بعض البحوث جوانب بلاغية جزئية، كدراسة محمد مشعالة[٦] في الصورة الشعرية، وأمل الفريدي[٧] في النسق الضدّي، أو أبعادًا نقدية ونفسية كما عند أيمن القبيسي[٨]، ومحمد حسن أمرائي[٩]، وهي مقاربات كشفت جوانب مهمّة من النص، لكنها لم تتناول الفوضى باعتبارها بنية تنظيميّة تُعيد بناء الدلالة الشعرية. ومن هنا تتحدّد إضافة هذا البحث في تقديم قراءة جمالية تأويلية للفوضى في اللزوميات بوصفها نسقًا منظِّمًا يحوّل التفكك الظاهري إلى اتساق دلالي عميق.

(٣) نبيلة نصّاح، "أبو العلاء المعرّي والتفكير الفلسفي في لزومياته"، مجلة التراث ٧، العدد ٤ (٢٠١٧م).

(٤) نادية الصاعدي، "أبو العلاء المعرّي والتفكير الفلسفي في لزومياته"، مجلة بحوث التربية النوعية –جامعة المنصورة، العدد ٢٦ (يوليو ٢٠١٢م).

(٥) أسماء بوسعيد، "أصول الفكر وهواجسه في لزوميات أبي العلاء المعرّي: دراسة وصفية تحليلية"، مجلة دراسات ١٣، العدد ٣١ (يوليو ٢٠٢٠م).

(٦) محمد مشعالة، "الصورة الشعرية في لزوميات أبي العلاء المعرّي"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد ٢١ (ديسمبر ٢٠٠٩م).

(٧) أمل بنت مليح الفريدي، "النسق الضدّي في ثنائيات أبي العلاء المعرّي: دراسة سيميائية"، مجلة كلية اللغة العربية بسيوط – جامعة الأزهر، العدد ٤٣، ج٢ (مايو ٢٠٢٤م).

(٨) أيمن علي جاسر القبيسي، "تجليات الموقف النقدي في الخطاب الشعري عند أبي العلاء المعرّي: اللزوميات أنموذجًا"، مجلة المهرة الإنسانية، العدد ١٤ (يونيو ٢٠٢٣م).

(٩) محمد حسن أمرائي، "ملامح النرجسية في أشعار أبي العلاء المعرّي في ضوء نظرية أوتو كرنبرغ"، مجلة إضافات نقدية ١١، العدد ٤١ (٢٠٢١م).

منهج البحث وخطته:

يعتمد البحث قراءة جمالية تأويلية بوصفها الإطار المنهجي الرئيس في تحليل لزوميات أبي العلاء المعرّي، من خلال قراءة النص في ضوء بنيته الداخلية وآليات اشتغاله، مع توظيف الوصف والتحليل بوصفهما أدوات إجرائية في تفكيك النصوص ورصد أنماطها الأسلوبية والدلالية، وتتوزّع خطة البحث على مقدمة، وتمهيد يتناول الإطار النظري لمفهوم الفوضى، وثلاثة مباحث: أولها يعالج الفوضى الفكرية بوصفها نظامًا للشكّ، وثانيها يدرس الفوضى اللغوية من خلال أنماط الانزياح والتقابل، وثالثها يتناول الفوضى الجمالية القائمة على المفارقة، وتُختتم الدراسة بخاتمة تجمع أبرز النتائج.

التمهيد: الفوضى من المفهوم إلى النسق:

نشأت نظرية الفوضى في سياقها الفلسفي قبل أن تنتقل إلى حقل الدراسات الإنسانية والنقدية والأدبية، حيث أُعيد النظر في هذا المفهوم بما يحرّره من دلالات العشوائية والاضطراب والخلل، ويكشف عن صلته بالنظام الخفي والجمالية اللغوية والنسق الفكري، ولا سيما في المقاربات الإنسانية. وفي هذا الإطار، يتيح التقريب اللغوي لمادة (**فيض**) مدخلًا دلاليًا كاشفًا يربط بين الجذر اللغوي للمصطلح وأبعاده المفهومية، تمهيدًا لتتبّع حضوره في الحقول الفلسفية ثم النقدية والأدبية، دون ادّعاء اشتقاق مباشر، وإنما على سبيل الإضاءة الدلالية، إذ تشير مادة (فيض) في المعاجم إلى الكثرة والامتلاء والتدفّق، كما في قولهم: "فاض صدر فلان بسرِّه إذا امتلأ "(١٠)، و"أفاض الناس من عرفة إذا دفعوا وذلك كجريان السَّيْل"(١١)، و"فاض الماء، أي كثر حتى سال على ضفة الوادي، وفاضت عينُه تفيضُ فيضًا إذا سالت، وفاض الماء إذا كثُر، والفيض النَّهر، ونهرٌ فيَّاض أي كثير الماء"(١٢).

ومن خلال التعريف المعجمي يتبيّن أن أصل استعمال لفظة (الفوضى) في اللسان العربيّ يدلّ على الكثرة والاتساع والاندفاع، وهي دلالات لا تنطوي في ذاتها على الاضطراب أو التشتت أو العشوائية، وإن كانت قد تنشأ عنها في بعض السياقات اللاحقة، فالوضع اللغوي يشير ابتداءً إلى الزيادة والمزاحمة وجريان العناصر، وهي

(١٠) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، "تهذيب اللغة"، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت)، ١٢: ٧٩.

(١١) أحمد بن فارس، "مقاييس اللغة"، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م)، ١: ٤٦٥.

(١٢) ابن منظور، "لسان العرب"، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ٥: ٣٥٠٠-٣٥٠٢.

خصائص قد تُفضي إلى التفرّق أو الخلط دون أن تفترض غيابًا أصليًا للنظام. ويقترب هذا المعنى من تعريف معجم أكسفورد للفوضى بوصفها "غياب تام للنظام"(١٣)، كما يلتقي مع تعريف أندريه لالاند في موسوعته الفلسفية حين عرّفها بأنها "خليط غامض من كل عناصر الكون قبل أن تقوم قوة بتنظيمها وترتيبها"(١٤)، إذ تُطلق الفوضى – وفق ذلك– ويراد بها "حالات غير منتظمة في سلوك العناصر المتفاعلة، يكون هذا التغيير فيها نتيجة اضطرابات خارجية عشوائية محيطة، وقد تكون هذه التغييرات غير محسوسة أو غير لافتة للإدراك"(١٥).

ولعلّ دلالة الاضطراب الملازمة للمفهوم هي ما مهّد لانتقاله إلى الحقل الفلسفي، حيث عُدّت الفوضى فرعًا فلسفيًا وعلميًا يدرس "السلوك المعقد وغير المنظم للعديد من النُّظم في الطبيعة والأفعال التي تسلك سلوكًا فوضويًّا لا يُمكن التَّنبُّؤ بنتائجه..."(١٦)، وقد تبلور هذا التصوّر في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ولا سيما في الفيزياء، مُحدثًا تحوّلًا في مسار العلم الغربي الذي انشغل طويلًا بالحساب الكميّ على حساب الكيف، ومن ثمّ غدت الفوضى عِلْمًا "يُعنى بالعمليات المتحركة أكثر من عنايته بالحالات الثابتة، ليكون علم ما قد يتحقق وما قد يكون أكثر من كونه علمًا قائمًا ومتحققًا فعلًا"(١٧).

(١٣) معجم أكسفورد، ١٣٩.

(١٤) أندريه لالاند، "موسوعة لالاند الفلسفية"، ترجمة خليل أحمد خليل، (بيروت: منشورات عويدات، ٢٠٠١م)، ١٦٨.

(١٥) نهال عبد الله عبد الرحمن غرابية، "جماليات الفوضى ودلالاتها في الشعر العباسي: أبو نواس وأبو تمام والمتنبي نموذجًا"، رسالة دكتوراه، (الجامعة الهاشمية، ٢٠٢٠م)، ٢٠.

(١٦) ابتسام بنت عبد الله بن مبارك الحجرية، "الفوضى الانفعالية في شعر المتنبي"، رسالة ماجستير، (جامعة نزوى، ٢٠١٠م)، ٣٠-٣١.

(١٧) غرابية، "جماليات الفوضى"، ١٠–١١.

وبدأ الاهتمام العلمي المنهجي بنظرية الفوضى في أوائل ستينات القرن العشرين مع أعمال إدوارد لورينز، حين أدخل أنماط حركة الطقس في حاسوب محدود الذاكرة، فلاحظ أن تغيّرًا طفيفًا في المعطيات يُفضي إلى اختلافات كبيرة في النتائج، وهو ما تجلّى بصريًا في شكل فراشة، ليظهر ما عُرف لاحقاً بـ " تأثير الفراشة الذي بقي حاضرًا إلى اليوم"(١٨)، وقد كشفت هذه النظرية أن كثيرًا من الأنساق التي بدت فوضوية تمامًا تنطوي في عمقها على قدر من النظام، وإن كانت أنساقًا غير خطية ومعقّدة، تخضع لقوانين يمكن – في مدى زمني محدود – استشراف مساراتها، بما يؤكد أن الظواهر الفوضوية لا تخلو من انتظام، بل تحتضن في بنيتها "نظامًا خفيًا مستورًا "(١٩).

ويُشير ذلك إلى أن الفوضى تمثّل سلوكًا في الطبيعة يتجاوز النماذج التفسيرية التي صاغها الإنسان في صورة قوانين ونظريات، دون أن يعني ذلك غياب التفسير أو انعدام النظام؛ إذ قد تنتج الظواهر الفوضوية عن مؤثّرات غير مدركة تعمل خارج الأطر المعرفية السائدة، لكنَّها تظل خاضعة لأنظمة أخرى لم تُكتشف بعد، ومن ثمّ، فإن الفارق بين الفوضى والنظام هنا فارق معرفي لا جوهري، إذ تُفهم الفوضى بوصفها نظامًا محكومًا بقوانين غير مُدركة، أو نظامًا غير واعٍ لم تتكشف آلياته بعد.

وتكشف لزوميات أبي العلاء عن حضورٍ واضح لما يمكن تسميته بالنظام اللاواعي، الكامن وراء تراكم معرفي واسع في فنون القول شكّل مرجعيته الأدبية واللغوية، وانعكس في بنية خطابه الشعري، ويتداخل هذا الرصيد المعرفي مع وعيٍ حادّ بالمجتمع وتناقضاته، بين التدين والزندقة، والزهد والترف، وغيرها من المفارقات التي أسهمت في تشكيل رؤية شعرية تُجسّد علاقة الشاعر بعالمٍ مأزوم، يتبدّى في مستواه العميق قريبًا من

(١٨) المرجع نفسه، ١١.

(١٩) إلياس بلكا، "الوجود بين السببية والنظام"، ط١، (الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٩م)، ٣٣٨.

منطق الفوضى الجمالية.

وقد تزامن حضور نظرية الفوضى في الحقل الأدبي مع التحوّل من البحث عن الوحدة والنظام إلى مساءلة منطق النسق ذاته؛ إذ أفضت النماذج العقلانية القائمة على الاستقراء والاستنباط إلى قراءة تُقصي الظواهر الدينامية المعقّدة، "لكن المبالغة في التجريد أدى إلى استبعاد الظواهر الدينامية المعقدة التي تخترق وحدة النظام وتشوش على منطق النسق، وبالمفارقات المفاجئة والتحولات اللاخطية كان لابد من ولادة نموذج نظري بديل يتمرد على مركزية النص وطبيعة النسق لتفعيل دينامية الظواهر العمائية المتحولة من حالة إلى أخرى، بفعل تغيرات غير منتظمة، وهو ما فعلته النظريات ما بعد البنيوية وخاصة التفكيكية"(٢٠).

ومن هذا المسار ارتبطت الفوضى بالمنهج التفكيكي، حيثُ "بزغت في الحقل النقدي بعدِّها حالة تغيير تُصيب المنظومة، وبكونها حركة تستعصي على التَّنبُّؤ، فهي غير ثابتة"(٢١)، كما حضرت في الدرس النقدي ضمن سياقات النقد الثقافي وتحليل الأنساق، وفي بعض مفاهيم الأسلوبية، وعلى رأسها الانزياح، وما يتصل به من آليات تفكيكية تستفزّ القارئ لاستقراء المدلولات وتتبع بنيات المعنى. ومن هنا "برزت مشروعية القراءات المتعددة، لأن النص يحفل بمناطق الصمت التي ينبغي على القارئ أن يملأها، وهذا ما يجعل القارئ يقوم بمهمة كتابة النص ثانية"(٢٢).

وتمثّل إعادة القارئ كتابة النص فعلًا تأويليًا ناتجًا عن انزياح الخطاب، إذ يعاد إدراج النص داخل نظام واعٍ يُمكن من استجلاء مراد الشاعر، ويكشف ذلك عن الصلة

(٢٠) محمد بوعزة، "هيرمينوطيقا المحكي: النسق والكاوس في الرواية العربية"، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، د.ت)، ٤٦.

(٢١) الحجرية، "الفوضى الانفعالية"، ٣١.

(٢٢) غرابية، "جماليات الفوضى"، ٢٧.

الوثيقة بين الفوضى والانزياح، الذي يعرّفه عبد الملك مرتاض بأنه: "المروق عن المألوف"(٢٣)؛ فالعلاقة بينهما، وإن بدت متعارضة في ظاهرها، تقوم في جوهرها على إعادة تنظيم الدلالة، حيث لا تعمل الفوضى على هدم المعنى، بل تتيح عبر الانزياح بعث المعاني المُزاحة، وإنتاجها داخل توتر لغوي مقصود.

وترتبط الفوضى في لزوميات أبي العلاء بمفهوم التنافر، إذ يولِّد الشاعر هذا الأثر عبر مزاوجة الجد بالدعابة، أو إيراد المديح مشوبًا بالسخرية، جامعًا أصواتًا متعدّدة داخل القصيدة على نحو مقصود، ويمكن فهم الفوضى، في هذا السياق، بوصفها تداخلًا خطيًا في الأنساق، يتجسّد فنيًا في بنية النص ذاتها، بما يرسّخ ما يمكن تسميته بقانونية الفوضى؛ حيث تنطلق القصيدة من استهلال محدد، وتتنامى نتائجها وفق نظام خفي، قد يفضي فيه أي اختلال أوّلِي طفيف إلى آثار غير متوقعة عبر سلسلة دلالية مفتوحة(٢٤)، ويظهر أثر هذا التصور بوضوح في تلقي لزوميات أبي العلاء، وما أثارته من تباين في تقويم إيمانه وسلامة فكره، نتيجة تداخل الفلسفة بالنقد الاجتماعي، والسخرية بالجد والهزل.

ومن هنا يمكن إجمال خصائص الفوضى التي يعتمدها البحث في قراءة لزوميات أبي العلاء المعرى في سمات رئيسة، أبرزها النظام الخفي، الذي يُقارب عبر الإيقاع والتكرار، واللاخطية المتجلية في بنية دلالية غير مستقرة لا تسير في مسار واحد، إضافة إلى الحساسية الابتدائية حيث تتبدل الدلالة بتبدل السياق، والاحتمال الدلالي القائم على انفتاح المعنى وتعدّد تأويلاته دون انغلاق على قراءة واحدة.

---

(٢٣) عبد الملك مرتاض، "شعرية القصيدة: قصيدة القراءة"، ط١، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٤م)، ١٣٠.

(٢٤) يُنظر: سوزان ناجي فيصل، "الفوضوية وتمثلاتها في فنون ما بعد الحداثة: دراسة تحليلية"، مجلة نابو للبحوث والدراسات، العدد ٥٢ (أكتوبر ٢٠٢٥م): ٨٤٣.

إنَّ الشعر العباسي، بوصفه مرآة لتحولات عصره السياسية والاجتماعية والفكرية، شهد حضورًا واضحًا لملامح الفوضى الجمالية واللغوية، تجلّت في اضطراب الدلالة، وتنامي التنافر الأسلوبي، وتكثيف المفارقات، وبرز ذلك عند شعراء مثل ابن الرومي وبشار بن بُرد وأبي تمام[٢٥]، في صور أسلوبية متعددة تتقاطع مع الانزياح، مثل التضاد وتعدد الأصوات، غير أنّ هذه الفوضى ظلّت في معظمها ظاهرةً أسلوبية جزئية، حتى بلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري عند أبي العلاء المعرى، حيث تحوّلت من أثرٍ متفرّق إلى رؤية شعرية وفكرية واعية، وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى تحليله في فصولها اللاحقة.

(٢٥) محمد عبد العزيز الموافي، "حركة التجديد في الشعر العباسي"، (القاهرة: مطبعة التقدم، د.ت)، ٢٠١.

المبحث الأول: الفوضى الفكرية- نظام الشكّ

يعدُّ الشك أحد أبرز الدوافع التي يُمكن من خلالها تفسير الفوضى الفكرية في لزوميات أبي العلاء المعرّي، ولاسيّما إذا كنا بصدد شاعر عاش توترًا حادًا بين مقتضيات العقل واصطدامه بالواقع، وهو توتر ترك أثره الواضح على بنيته الفكرية وخطابه الشعري، وقد تجلّى هذا التوتر في صورة قلق معرفي وحيرة ذهنيّة ممتدة، انعكست في مواقف متعددة، تبرز في مقدمتها القضايا المتصلة بالدين، حيث انفتحت تجربته الشعرية على تساؤلات وإشكالات شائكة.

وتكشف اللزوميات عن حضور مزدوج داخل الخطاب الشعري؛ إذ تتجاور نصوص تُحيل إلى مرجعية إيمانية مع أخرى تُصاغ بلغة إشكالية تُثير السؤال وتوسع دائرة الشك، وهو ما يُنتج صورة مركبة للمعتقد داخل النص، تعمل بوصفها بنية دلالية متوترة. ومن هذا المنطلق يتناول هذا المبحث الشك عند أبي العلاء باعتباره نسقًا فكريًا منتجًا للمعنى، يتشكّل داخل اللغة الشعرية عبر آليات السؤال، والتناقض، وكسر اليقين، ضمن ما يمكن تسميته بنظام الشك بوصفه أحد تجليات الفوضى الفكرية في الخطاب المعرّي.

ومن هنا فإن حضور الشك واللايقين في خطاب أبي العلاء لا ينشأ عن موقف عدمي أو إنكار مباشر، بقدر ما يتولّد عن اشتغال العقل في مساءلة ما يصطدم به من تقاليد دينية واجتماعية، وهو ما دفعه إلى اتخاذ العقل مرجعًا نقديًا يعكسه شعره بوضوح، ويتجلى ذلك في تمييزه الدقيق بين الدين بوصفه سننًا كونية وقيمًا حاكمة لسلوك الإنسان، وبين ممارسات بشرية تزعم التدين ظاهرًا، في حين تنطوي أفعالها على ما يناقض تلك القيم. وفي هذا السياق يقول[٢٦]:

(٢٦) أبو العلاء المعري، "اللّزوميات"، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، (بيروت/القاهرة: مكتبة الهلال؛ مكتبة الخانجي، د.ت)، ٢: ٢٠٨.

آلـيـتُ: مـا تَـوْراتـكـم بِمُـنـيرةٍ إنْ أُلْقِيَـتْ فيهَـا الكُمَيْـتُ مُحلَّلَـة

هفت الحنيفةُ، والنَّصـارى ما اهتدتْ ويهودُ حـارتْ، والمجوسُ مُضـلَّلَـهْ

اثنـان أهـلُ الأرضِ ذو عقـلٍ بِلَا دِيـنٍ، وآخـرُ دَيِّـنٌ لا عـقـلَ لَـهْ

وتأتي هذه الأبيات لتوسّع هذا التصوّر، إذ تنتقل من مساءلة التفاوت بين القيم الدينية وممارساتها إلى تصوير أنماط إنسانية يتجلّى فيها هذا الاختلال؛ حيث يقسّم الشاعر أهل الأرض إلى نموذجين متقابلين: أحدهما يمتلك العقل دون أن يستند إلى إطار ديني، والآخر يتمسّك بالدين دون أن يصاحبه وعيٌ عقلي، وهو ما يكشف خللًا في التوازن بين هذين البعدين داخل التجربة الإنسانية.

وعلى هذا النحو، تتشكّل مفارقة دلالية تقوم على توتر العلاقة بين العقل والتدين، من حيث تمثّلهما داخل التجربة الإنسانية، بما يكشف عن صور من الاختلال في توازن القيم حين ينفصل أحدهما عن الآخر، وفي هذا المجال الوسيط يتجلّى الشك بوصفه حالة معرفية منتجة، تتجاوز حدود اليقين الجامد، وتفتح أفقًا للتساؤل وإعادة النظر، بما يفضي إلى بناء نمط من الفوضى الفكرية التي تشتغل داخل النسق نفسه، عبر كشف مواضع اختلاله وإعادة مساءلته.

وبالإضافة إلى ذلك، تُفضي الفوضى الفكرية عند أبي العلاء، في سياق منهجه في الشَّكّ إلى كسر سلطة الموروث لا من حيث انتماؤه الديني فحسب، بل من حيث تمثلاته التاريخية والخطابية، إذا يتجاوز نقده أتباع الديانات إلى مساءلة الخطاب الديني كما تداوله الناس وفهموه، ويتجلى ذلك في توجيه الخطاب نحو الكتب المقدسة بوصفها نصوصًا أُفرغت – في نظره – من فاعليتها الأخلاقية بسبب سوء التلقي والممارسة، فيقول (٢٧):

(٢٧) المعري، اللّزوميات، ١: ٣١٩.

أمـورٌ تســـتـخـفُّ بهـا حُـلـومٌ ... ومـا يـدري الفـتى لمـن الثُّبـورُ
كتـابُ محمـدٍ وكتـابُ موسَـــى ... وإنجـيـلُ ابـنُ مـريمَ والـزَّبُـورُ
نَهَـتْ أُمَمًـا فـمـا قـبـلـتْ وبارتْ ... نصـــيحتهـا فكـلُّ القومِ بُورُ
أصـــولٌ قـد بُنين على فســـادٍ ... وتـقـوى الله ســـوقٌ لا يـبـورُ

ولا يتجه هذا الخطاب – في بنيته العميقة – إلى نفي قدسية هذه النصوص أو إنكار مرجعيتها العقدية، بقدر ما يركّز على المفارقة التي يولّدها التناقض بين ما تحمله من منظومات أخلاقية وقيمية، وبين واقع أتباعها الذين لم ينتصحوا بها في السلوك والعمل، كما تنبثق جمالية الفوضى هنا من هذا التوتر الحاد بين الأصل والممارسة، إذ تُعرّي لغة الشاعر خلل التمثّل البشري للنص، فتغدو الفوضى أداة كشفٍ نقدي لا موقفًا عدميًا، ونظامًا من الشك يعيد مساءلة الموروث من داخله لا من خارجه.

وتندرج هذه النظرة ضمن المسار نفسه؛ إذ تتوجه لغة أبي العلاء في بعض مواضيع اللزوميات إلى نقد الخطاب الديني كما يتداوله الناس، من زاوية ما آل إليه من تزييف في الفهم وتأويل نفعي في الممارسة، فتظهر الكتب المقدسة – في تمثّل الخطاب الشعري – عناصر داخل منظومة سردية متوارثة يُروّج لها أتباعها، من غير أن يتحقق أثرها الأخلاقي في الواقع، ويعبّر عن هذا التوتر بقوله[٢٨]:

ديـنٌ وكُـفـر وأنبـاء تُـقـصُّ وفُـرْ ... قـانٌ يـنـصُّ وتـوراةٌ وإنجـيـلُ
في كـل جيـل أباطيـل يُـدان بهـا ... فهـل تفرَّدَ يومًـا بالهُـدى جيـلُ
ومن أتاه ســـجلُّ الســـعد عن قدرٍ ... عـالٍ فليسَ لـه بالخلدِ تســـجيلُ

(٢٨) المعري، اللّزوميات، ٢: ١٨٣.

وتتولّد حدّة هذا الخطاب من حالة ضيق معرفي وتبرّم أخلاقي ارتبطت بموقف الشاعر من علماء الدين، وممن رأى في ممارستهم صورًا من الظلم والابتزاز وتشويه الحقائق، وهو ما عمّق الحيرة ورفع منسوب الشك في وعيه، وتكشف هذه النصوص عن صوت شعري متمرّد، يتوسّل بالمبالغة والهجوم بوصفهما أداتين بلاغيتين للتعبير عن أزمة الوعي، فتغدو الفوضى الفكرية مسارًا نقديًا يهدف إلى هدم الصور الجاهزة للدين في تمثلاته الاجتماعية، ويجعل الخطاب الشعري قناعًا تعبيريًا لأزمة فكرية ومعرفية، تنتج دلالتها عبر الصدمة والتناقض والتوتر.

وتتجلى نزعة الشك في لزومياته من خلال تأمله القَلِق في الوجود ومآلاته، وما يتصل بذلك من تساؤل حاد حول معنى الحياة والموت، وحدود المصير الإنساني بعد الفناء، وهو تساؤلٌ يعبَّر عنه بلغة تتسم بالمرارة والسخرية الوجودية، ويكشف هذا النسق في قوله (٢٩):

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحُقَّ لسكَّان البسيطة أن يبكُوا

يُحطِّمُنا ريبُ الزمان كأننا زُجاجٌ، ولكن لا يعاد له سبكُ

وتوحي الأبيات بصورة إنسانية مأساوية تقوم على تشبيه الإنسان بالزجاج في قابليته للكسر أمام تقلبات الزمن، مع الإشارة إلى خصوصية المصير الإنساني الذي لا يسمح بعودة الجسد إلى حالته الأولى بعد الفناء، على خلاف الزجاج الذي يمكن إعادة سبكه في عالم المادة، ويُنتج هذا التصوير الشعري حالة من القلق الوجودي المرتبط بإدراك هشاشة الإنسان وزواله، وهو قلق يُغذّي نسق الشك في اللزوميات بوصفه تعبيرًا عن فوضى فكرية ناتجة عن التأمل في المصير، دون أن يتحول ذلك إلى تقرير عقدي مباشر، أو تصريح نهائي في قضايا الغيب، وإنما يظل مندرجًا في إطار الرؤية الشعرية

(٢٩) المعري، اللّزوميات، ٢: ١٤٧.

التي تبني معناها عبر المفارقة والتوتر.

ويواصل أبو العلاء تمثيل نزعة الشك في لزومياته عبر صورٍ تقوم على التردد وعدم الاطمئنان، وتُجسّد قلق الوجود وتقلب الموقف الذهني، فيقول (٣٠):

فقلنـــا للهزيـــزِ أأنـــتَ ليـــثٌ فشـــكَّ وقـــال عَلِّـــي أو كـــأنِّي

وضـــعتُ علـــى قـــرَى الأيام فمـــا أنا للمقـــام بمطمـــئنِّ

أحـــنُّ ومـــا أجـــنُّ ســـوى غـــرامٍ بغـــير الحـــق مـــن حـــنٍّ وجـــنِّ

وتكشف هذه الأبيات عن بنية تردٍ ذهني تتأسس على الشك في التعيين والهوية والاستقرار، حيث يتجلّى الوجود بوصفه حالة عبور دائم، ويغدو المقام فعلًا مؤقتًا لا يورّثُ الطمأنينة، ويعبّر هذا النسق عن حيرة عقلية عميقة تتنازعها الاحتمالات، وتنعكس في لغةٍ تقوم على التعليق والترديد والانتقال، وهو ما يجعل الشك هنا مكونًا بنيويًا في الرؤية الشعرية، وليس عرضًا عابرًا، وتحيل هذه الصياغة إلى عبث الوجود الذي يعاينه الشاعر في مجتمعه وعلاقاته، فتغدو الأبيات تمثيلًا مكثفًا لقلقه الفكري وتردده أمام ترجيحات العقل.

ويعود هذا المنحنى في الشك إلى ما امتلكه أبو العلاء من مواهب فطرية، وما راكمه من علوم ومعارف شكّلت ركيزة أساسية للفوضى الفكرية في تجربته، ولاسيّما حين تصطدم هذه المعارف بواقعٍ اجتماعي متناقض عبّر عنه مرارًا في لزومياته، وقد أسهمت عزلته الطويلة وملازمته مكتبته في تكثيف هذا الزخم المعرفي بما أتاح له الاشتغال على أبواب متعددة من المعرفة، شملت الأدب والفلسفة واللغة والاجتماع والدين، وغيرها.

وفي هذا السياق يُروى عنه أنه "كان له شأن عظيم ونفوذ كبير في بلدته، وكان

(٣٠) المعري، اللّزوميات، ٢: ٣٨٥.

له مال يُنفق على الفقراء، وكان شخصية غريبة الأطوار، فهو شاعر فيلسوف، وعبقري كبير، كان يرى أن الناس هم الذين لا يفهمونه، كما كان يرى كذلك أنه لا تناقض في هذه الآراء التي تبدو له واضحة على عكس ما تبدو لقرائه وناقديه"(٣١)، وتؤكد هذه الشهادة أن الشك عند أبي العلاء ليس نتاج عزلة نفسية، وإنما ثمرة وعي معرفي كثيف يرى في التعدد والتوتر سبيلًا لفهم العالم، وينتج من هذا الوعي فوضى فكرية تُبقي المعنى مفتوحًا، وتقاوم الاستقرار النهائي في الرأي والموقف.

وإذا أمعنَّا النظر في الفكر الفلسفي عند أبي العلاء، بدا لنا نسيجًا مشدودًا إلى هذا الاضطراب العقلي الذي أفرزته الفوضى الفكرية في وعيه، من خلال موازنة دائمة بين ما يقرُّه الإيمان من حيث المبدأ، وبين ما يراه الشاعر واقعًا معاشًا في المجتمع من اختلالات سلوكية وقيمية، ويعكس هذا التوتر موقفًا نقديًا حادًا من التناقض بين الخطاب الديني والممارسة الاجتماعية، وهو ما يدفعه إلى القول (٣٢):

تَورَّعُوا يا بني حوَّاء عن كـذبٍ فما لكُم عند ربِّ صـاغَكُم خطرُ

لم تُجـدبُوا لقبيحٍ من فِعـالكمُ ولم يَجِئْكُم لُجِسـن التوبـةِ المطرُ

ويُجسّد هذان البيتان نزعة الشك العقلي من خلال نفي العلاقة السببية المباشرة بين أفعال البشر ومجريات الكون، حيث يُصوّر الشاعر الإنسان ككائن محدود الأثر أمام سنن إلهية مطلقة لا تخضع لمقاييس الثواب والعقاب كما يتداولها الوعي الاجتماعي السائد، ويتّصل هذا التصوير بتعظيم مقام الألوهية وتنزيهها عن أن تكون رهينة لتقويم بشري مضطرب، فتغدو الحوادث الكونية– من جدب أو مطر– جارية وفق أقدار إلهية

(٣١) محمد ألف سيسه، "مظاهر التشاؤم في شعر أبي العلاء المعرّي"، مجلة حوليات التراث، العدد ٢٣ (سبتمبر ٢٠٢٣م): ٨٩.

(٣٢) المعري، اللّزوميات، ١: ٣١٢.

محضة، تتجاوز التأويل الأخلاقي المباشر الذي يسقطه الناس على الواقع.

وفي هذا السياق؛ يتبدّى خطاب أبي العلاء بوصفه تعبيرًا عن مقتٍ فكري موجَّه إلى إنسان فقد بوصلته القيمية، وإلى مجتمعٍ راجت فيه المظاهر على حساب العقل والضمير، وهو ما عبَّر عنه بعض الدارسين بقولهم إن موقفه يمثّلُ "مقتًا لإنسان تاه عن حقيقته، ومجتمعًا راج فيه كل شيء إلا العقل والقلب والضمير، وأديان شوهت حقائقها، وغاياتٍ قُلِبت مقاييسها وأصبحت أشبه بالمتاجر منها بالمنائر..."(٣٣)، ويغدو هذا الموقف جزءًا من نسق الشك الذي يشتغل في لزومياته بوصفه فوضى فكرية ناتجة عن صدام الوعي المعرفي بالواقع، تنتج معناها عبر التوتر والمساءلة، وليس عبر التقرير والحسم.

ويؤكد أبو العلاء هذا المعنى في أبيات أخرى يقول فيها (٣٤):

لم يسقِكم ربكم عن حُسن فعلكُم ... ولا حماكُم غَمامًا سُوء أعمالِ

وإنما هي أقدارٌ مرتَّبةٌ ... ما عُلِّقَتْ بإساءاتٍ وإجمالِ

دليلُ ذلك أن الحُرَّ أعوزهُ ... قُوتٌ وأنَّ سواه فاز بالمالِ

كم جُدَّ بالرزق ثاوٍ في منازلهِ ... وحُدَّ سارٍ بأفراسٍ وأجمالِ

فأمِّلُوا الله وارجُوا منه عاقبةً ... فليس دُنياكُمُ أهلًا لآمالِ

دِنتُم بأن سَيُجازِيكُم إلهكمُ ... فما لأفعالكم أفعالُ إهمالِ

إن أبا العلاء يعيد في مطلع هذه الأبيات ربط أفعال البشر، بخيرها وشرها، بمنظومة القدر، ثم يُبْرِزُ عبر بناء شعري متدرّج اختلال العلاقة المتداولة بين العمل

(٣٣) خليل شرف الدين، "أبو العلاء المعرّي مبصر بين عميان: في سبيل موسوعة فلسفية"، (د.م: د.ن، د.ت)، ١٦٢.

(٣٤) المعري، اللّزوميات، ٢: ٢٣٢.

الإنساني ومآلات الرزق والعيش، فتغدو الأقدار في تمثّل الخطاب الشعري، غير خاضعة لقياس أخلاقي مباشر، ولا مرتبطة ارتباطًا سببيًا بسيطًا بما يصدر عن الإنسان من أفعال. ومن هنا تتولّد أسئلة عميقة حول معنى الفعل الإلهي، ودلالة القدر، وحدود العدالة كما يتصورها الوعي الاجتماعي، وهي أسئلة لا تُطرح طلبًا لحسم نهائي، وإنما لتكريس أفق تأويلي مفتوح قائم على اللايقين.

ويعزز الشاعر هذا المنحى بتقديم شواهد واقعية داخل النص نفسه، كما في البيتين الثالث والرابع، حيث يُقابِل بين المجتهد الذي يصادف العوز، والمترف الذي يحوز الثراء من غير عناء، فتتشكل صورة لعالم تتفكك فيه العلاقة الخطية بين السبب والنتيجة. ومع ذلك، يتجه الخطاب في خواتيم الأبيات إلى توجيه الإنسان نحو ربط أفعاله برجاء العاقبة الإلهية، والتعامل مع الدنيا بوصفها دار ابتلاء لا دار جزاء، في محاولة لتخفيف حدّة الغموض عبر أفق قيمي عام.

وتنتج هذه المفارقات في توزيع الرزق عند أبي العلاء تصورًا لعالم غير قابل للتنبؤ، تتجاور فيه الاحتمالات وتتداخل المسارات، وهو تصور يلتقي مع منطق النظم غير الخطية في نظرية الفوضى، حيث لا تقود المدخلات المتشابهة بالضرورة إلى نتائج متماثلة. ومن هنا ينفتح باب التأويل في شعر المعرّي، كما ينفتح في فكره، عبر نزعة شك واعية تُبقي المعنى في حالة حركة، وتدفع المتلقي إلى إعادة التفكير في الفهم السائد للعلاقة بين الفعل والجزاء، والسبب والمآل.

وتُفهم الفوضى الفكرية في هذا السياق بوصفها حالة من الاضطراب المعرفي المنتج، تُفضي إلى تعميق القراءة وتوسيع أفق التأويل، وقد لازم هذا النسق تجربة أبي العلاء في اللزوميات، حتى وُصِفَ بأنه "مفكر، ورمز للعقل البشري الحائر الوثاب في الوقت نفسه، غير المحدود في عظمه، وغير المحدود في صغره أيضا" (٣٥).

(٣٥) شرف الدين، "أبو العلاء المعرّي مبصر بين عميان"، ١٦٣.

لقد أفضت نزعة الشك العقلي في لزوميات أبي العلاء إلى توجيه نقد حاد لتمثّلات أهل الكتب في الواقع الاجتماعي، ولا سيما في اليهودية والمسيحية، حيث يتخذ الخطاب الشعري طابعًا هجوميًا يكشف ما يراه الشاعر انحرافًا في الممارسة الدينية، وتحولًا نحو توظيفها في سياقات نفعية، ويتبدّى هذا التوجّه في عدد من الأبيات التي تتدرّج من التقرير المباشر إلى بناء صورة نقدية أكثر تركيبًا، كما في قوله(٣٦):

ولا تُطيعنَّ قومًا ما ديانتُهم ... إلا احتيالٌ على أخذِ الإتاواتِ

وإنما حمَّلَ التوراةَ قارئَهَا ... كسبُ الفوائدِ لا حبُّ التلاواتِ

إنَّ الشرائعَ ألقَت بيننا إحنًا ... وأودعتنا أفانين العداواتِ

وهل أُبيحت نساءُ القومِ عن عرضٍ ... للعُربِ إلا بأحكامِ النُّبوَّاتِ

وتكشفُ هذه الأبيات عن اختلال العلاقة بين الموروث الديني وتمثّلاته في الواقع الاجتماعي، إذ يكشف الخطاب الشعري عن انزياح الممارسة نحو توظيف نفعي تتراجع فيه القيم لصالح المصالح، ويتحوّل التدين إلى أداة اجتماعية مشوبة بالاختلال، ويُبقي النصُّ دلالته مفتوحة بين قراءتين محتملتين: قراءة تحمل نبرة وعظية تدعو إلى تصحيح الاعتقاد وإقامة الدين على أساسه الأخلاقي، وقراءة أخرى تُفصح عن ازدراء حادّ نابع من خيبة وعي الشاعر بمن لم يدركوا قيمة الرسالات وما تنطوي عليه من صلاح للإنسان في دنياه وآخرته، وفي هذا التردد الدلالي يتجسّد نسق الشك بوصفه فوضى فكرية تُنتج معناها عبر التوتر والاحتمال، وتُبقي الحكم النهائي معلقًا داخل أفق التأويل.

ويُعمّق أبو العلاء هذا المنحى في موضع آخر بقوله (٣٧):

(٣٦) المعري، اللّزوميات، ١: ١٧٥.

(٣٧) المعري، اللّزوميات، ٢: ١٨٣.

ديـنٌ وكـفـرٌ، وأنبـاءٌ تُـقـصُّ وفُـرْ	قـانٌ يـنـصُّ وتـوراةٌ وإنجـيـلُ
في كـلِّ جيـلٍ أباطيـلٌ يُـدانُ بهـا	فهـل تفرَّد يومًـا بالهُـدى جيـلُ
ومن أتاه سـجلُّ السَّـعدِ عن قدرٍ	عـالٍ، فليس لـه بالخُلدِ تَسـجيلُ
وما تَزالُ لأهل الفضـل منقَصَـة	وللأصـاغرِ تعظيم وتبجيـلُ
هل سُـرَّتِ الخيلُ أن زانَتْ سـوابقَها	بـينَ المـواكـبِ غُـراتٌ وتحـجيـلُ

وتبنى هذه الأبيات على ثنائية دلاليّة تُنتج منطقة وسطى بين الإيمان والشك في خبر السماء كما تتناقله الكتب المقدسة، وبين التمرد والإعراض عن تمثّلاته الاجتماعية، ويكشف هذا البناء عن رؤية ترى الباطل يتجدّد حضوره عبر الأجيال، وأن الهداية لا تتحقق بصورة كليّة في أمة من الأمم، رغم تعاقب النذر وتعدد الرسالات. ومن هنا يتشكّل تصور نقدي يبرز فيه أهل الفضل في موقع المنقصة الاجتماعية، في حين ينال الأصاغر حظَّهم من التعظيم والتبجيل، وهي مفارقة تُعيد ترتيب القيم السائدة وتُزعزع التصورات الموروثة حول غلبة الحق في الواقع المعاش.

ويؤدي هذا التفكيك القيمي إلى كسر سلطة الموروث في تمثّل العلاقة بين الحق والباطل، انطلاقًا من حرية عقلٍ يلتقط تناقضات المجتمع ويحوّلها إلى صور شعرية ناقدة، وتغدو نزعة الشك هنا مسارًا فكريًا يشتغل داخل الخطاب الشعري بوصفه فوضى منتجة للمعنى، تُبقي الدلالة في حالة توتّر واحتمال، وتفتح أفق التأويل في فهم الدين كما يُمارَس اجتماعيًا، لا كما يُتْلقّى في أصوله النصية.

ومن مظاهر الشك في تمثلات عقيدة الناس، كما يعكسها خطاب أبي العلاء، ما يتولّد عن هذا الاضطراب العقلي من مساءلة حادّة للتقليد الديني، حيث يتخذ الشاعر

موقفًا نقديًا من توريث الاعتقاد دون نظرٍ أو تمحيص، ويعبّر عن ذلك بقوله[٣٨]:

عاشُـــوا كما عاشَ آباءٌ لهم سَـــلفُوا وأُورِثُوا الدين تقليدًا كما وجدُوا

فمـا يُراعون مـا قـالوا ومـا سمعُوا وما يُبالون من غيٍّ لمن ســـجدُوا

والعُـدم أروحُ ممـا فيـه عَـالَمُهُمْ وهو التكلُّف إن هَبُّوا وإن هجدُوا

وتكشف هذه الأبيات عن رفض صريح للعقل الذي يكتفي بالامتثال لما هو موروث، وتعبّر في المقابل عن تقدير للعقل الذي يُمارِس وظيفته النقدية عبر السؤال والتأويل، وهو ما عبّر عنه بعض الدارسين بكونه "رفضًا وتسفيهًا للعقل المطيع، وفي المقابل تقديرًا وإعلاءً شأن العقل المتمرد"[٣٩]، ويغدو هذا العقل الفاعل أداة لتحويل اليقين الجاهز إلى إشكال مفتوح، يعيد من خلاله الفرد بناء فهمه الخاص للحقيقة.

وضمن هذا الأفق، تتخذ النبوة في الوعي الشعري عند أبي العلاء صورة إشكالية محاطة بالتساؤل، بفعل ما يراه الشاعر من هيمنة التقليد الأعمى، وإقصاء التفكير الحر في تلقي الدين، ويتحول الشك في هذا السياق إلى مسار معرفي دائم، تترجم فيه فكرة الحقيقة النهائية لصالح حركة عقلية متواصلة تُعْمِلُ التأويل في الدين والوجود، وتُبقي المعنى في حالة انفتاح واحتمال، وهو ما يرسّخ الفوضى الفكرية بوصفها نسقًا منتجًا لا يستقر عند يقين واحد.

وبهذا تتجلّى الفوضى الفكرية في لزوميات أبي العلاء المعرّي بوصفها حالةً معرفيةً متولدة من اشتغال الشك داخل البنية الشعرية، حيث يتحول السؤال إلى أداة إنتاج دلالي، ويتحوّل التوتر بين العقل والواقع إلى نسقٍ فكريٍّ فاعل، فالشك عند المعرّي لا

(٣٨) المعري، اللّزوميات، ١: ٢٣٥.

(٣٩) عبد القادر زيدان، "قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعرّي"، ط١، (مصر: دار الوفاء، ٢٠٠٦م)، ١: ١٢٢.

يقف عند حدود الإنكار أو التقرير، وإنما يتخذ صورة حركة ذهنية مستمرة، تُفكك المسلّمات، وتعيد النظر في أنماط الاعتقاد السائدة، وتكشف عن اختلال العلاقة بين الموروث والسلوك، وبين القول والفعل.

ومن خلال هذا الاشتغال، يُنتج الخطاب الشعري فضاءً دلاليًا مفتوحًا، تتداخل فيه المفارقة، والتناقض، وانكسار العلاقة السببية، بما يُقارب منطق النظم غير الخطية في نظرية الفوضى، حيث تتفكك البنى المستقرة، وتتولد المعاني من مناطق التوتر واللايقين، ويغدو الشك في هذا السياق نظامًا معرفيًا منظمًا في ظاهره المضطرب، يعمل على زعزعة اليقين الجاهز، وتحفيز وعي المتلقي على إعادة بناء المعنى وتأويله.

وعلى هذا الأساس، يمثّل نظام الشك أحد المفاتيح المركزية لفهم الفوضى الفكرية في شعر أبي العلاء، ويمهّد للانتقال إلى مستويات أخرى من الفوضى في اللزوميات، تتجلى في البنية القيمية والجمالية، وفي تشكّل المعنى الشعري ذاته، وهو ما تسعى الفصول اللاحقة إلى تتبّعه وتحليله ضمن إطار نسقي متكامل.

المبحث الثاني: الفوضى اللغوية - "الانزياح وصور التقابل"

يُجْمِعُ الدارسون ومصادر اللغة والأدب على رسوخ قدم أبي العلاء المعرّي في اللسان العربي، وبلوغه فيه منزلةً رفيعةً لم تتيسر لكثير من أدباء عصره، إذ تكشف مؤلفاته عن إحاطة واسعة بكلام العرب وغريبه، ومعرفة دقيقة بأسرار اللغة وتصاريفها، فضلًا عن اطلاعه على أخبار الأمم وعلوم الدين من قرآن وحديث وتفسير، وقد انصرف المعرّي إلى تتبع شوارد اللغة وتنقير ألفاظها، سعيًا إلى امتلاك ناصيتها، وهو ما عبّر عنه التبريزي في وصفه الشهير الذي نقله ابن العديم بقوله: "ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرّي"(٤٠).

ولا يُراد من هذا التقرير إثبات التفوق اللغوي في ذاته، وإنما الإشارة إلى سعة المعرّي المعجمية بوصفها أساسًا معرفيًا مكّنه من الإحاطة بالبنية اللغوية في مستوياتها المختلفة، وهي إحاطة لا تمثّل في ذاتها دليلًا مباشرًا على قدرته الأسلوبية، لكنها تهيئ المجال لبروزها، إذ إن الامتلاك العميق للنظام اللغوي يتيح إمكان خلخلته وإعادة تشكيله عبر أبنية انزياحية تتجلى في أنماط من التقابل الدلالي، يأتي التضاد في مقدمتها، ويُفهم في هذا السياق ضمن أشكال التقابل الدلالي المندرجة في بنية المفارقة، حيث يتجاوز التقابل حدوده اللغوية ليغدو أداة لإنتاج التوتر الدلالي في الخطاب الشعري.

لقد أسهمت الفوضى اللغوية في لزوميات أبي العلاء في توليد عدد من الظواهر الأسلوبية التي تُفصح عن رؤيته الفكرية وفلسفته في النظر إلى الإنسان والمجتمع، ولعلّ من أبرز هذه الظواهر الحذف والإضمار، بوصفهما آليتين لغويتين تكشفان عن مكنونات الخطاب، وتُنتجان دلالات موارية تتجاوز ظاهر التركيب إلى مستويات أعمق من المعنى، تعكس ما يختزنه النص من مضامين خفيّة متصلة بتجربة الشاعر ورؤيته

(٤٠) ابن العديم، "الإنصاف والتحري"، ٥٩٦.

للحياة والناس، ومن ذلك قوله في وصف صِنفٍ من أهل عصره(٤١):

إنسٌ على الأرض تُـدْمِي هـامَهـا مِنها، إذا دَمِيَتْ للوحش أنسـاءُ

فلا تَغُرَّنْـكَ شُـمٌّ من جبـالهمُ وعِزَّةٌ في زمـان الملـكِ قعْسـاءُ

ويصور المعرّي في هذه الأبيات طائفة من الناس استبدّ بها الحقد حتى غدا ينزف من رؤوسهم، في صورة مجازية كثيفة تُحيل إلى العنف الكامن في نفوسهم، وإلى أثر هذا الحقد الذي لا يقف عند حدود البشر، بل يمتد حتى إلى الحيوان. ومن هنا يوجّه الشاعر تحذيره من الاغترار بمظاهر القوة والهيبة التي يتزيّنون بها، وإن بدوا شامخين كالجبال في سلطانهم وملكهم.

ويبرز الحذف هنا بوصفه انزياحًا دلاليًا مقصودًا؛ إذا يرد الفعل (فلا تغرنَّك) في صدر البيت الثاني، ثم يحذف في شطره الآخر عند قوله: (وعزَّة في زمان الملك قعساء)، والتقدير: ولا تغرنك عزَّة في زمان الملك، غير أن هذا الحذف لا ينهض بوظيفة اختصارية فحسب، ولا يُفسَّر بمجرد الاكتفاء بما تقدَّم ذكره، بل يتجاوز ذلك إلى إنتاج دلالة جديدة، تنزع عن هذه العزّة قيمتها، وتُسقِط عنها أيّ استحقاق للتحذير أو الاعتداد.

والحذف هنا لا يُعيد الفعل المحذوف ضمنيًا فقط، وإنما يُفرّغه من ثقله الدلالي، ليُشير إلى أن ما يُسمّى عزّةً في سياق الملك ليست جديرة حتى بأن يُحذَّر منها، لأنها عزة زائفة قائمة على القهر والتقاعس والفساد، وضمن هذا الإطار الانزياحي القائم على الإضمار، يُحوّل المعرّي البنية النحوية إلى أداة نقد اجتماعي، ويجعل من الحذف وسيلة لخلخلة المعنى الظاهر، وإعادة توجيهه في مسار دلالي غير خطي، يُجسّد مظهرًا من مظاهر الفوضى اللغوية الواعية في خطابه الشعري.

(٤١) المعري، اللّزوميات، ١: ٣٩.

ومثله قوله (٤٢):

تَـوَحَّـدْ فـإنَّ اللهَ ربُّـكَ واحـدٌ ولا تَرغَبَنْ في عِشْـرةِ الرُّؤَسَـاءِ

يُقِلُّ الأذى والعيبَ في ساحة الفَتى وإن هُوَ أكـدَى قلـة الجلسَـاءِ

وينطلق المعرّي في هذه الأبيات من مبدأ توحيدي صارم، يجعل من الانقطاع إلى الله مركزًا وحيدًا للمعنى والطمأنينة، في مقابل عالم بشري تحكمه المصالح وتُسيّره شروط المنفعة، ويقوم البناء الدلالي هنا على مفارقة واضحة بين حالين: حال الوفرة واليسر، حيث يكثر الوافدون إلى ساحة الفتى، وحال العسر والكدّ، حيث ينفضُّ هؤلاء سريعًا.

ويبرز الحذف في الشطر الأخير بوصفه دلالية ذات وظيفة تتجاوز الاقتصاد اللغوي؛ إذ يرد الفعل (يُقِلّ) في قوله (يُقِلُّ الأَذى وَالعَيبَ في ساحَةِ الفَتى)، ثم يُحذف عند قوله: (وَإِن هُوَ أَكدى قِلَّةُ الجُلَساءِ)، والتقدير: (وإن هو أكدى يَقِلُّ الجلساء)، غير أن المعرّي لا يُعيد الفعل صراحة، بل يعدل إلى المصدر (قِلَّة)، بما يحمله من دلالة الثبوت والدوام، لا مجرد الحدث العابر.

وبَهذا الانزياح، ينتقل المعنى من توصيف حالة طارئة إلى تثبيت واقع وجودي؛ فغياب الجلساء ليس عارضًا مرتبطًا بظرف اقتصادي أو اجتماعي، وإنما سمة أصيلة تلازم الإنسان في لحظات الانكسار، وتكشف زيف العلاقات التي تُبنى على المنفعة، والحذف هنا لا يُنتجُ نقصًا في المعنى، بل يُحدث فراغًا تأويليًا مشحونًا، يدفع القارئ إلى إعادة تركيب العلاقة بين الفعل والمصدر، وبين الحركة والثبات، وهو ما يُمثّلُ أحد أبرز تجليات الفوضى اللغوية الواعية في خطاب المعرّي.

ومن هنا يتضح أن الحذف عند أبي العلاء لا يعمل داخل حدود البنية النحوية فحسب، بل يتجاوزها إلى القصد الدلالي المتكوّن في لا وعي الشاعر، حيث تتداخل

(٤٢) المعري، اللّزوميات، ١: ٥٢-٥٣.

المحددات النفسية والفلسفية في صياغة المعنى، بما يدفع قارئ اللُّزوميات إلى تأملٍ أعمق، وتفكيكٍ متأنٍ لمستويات الدلالة الكامنة في هذا النسيج الشعري المركّب، وهو ما عبّر عنه بعض الدارسين بكون شعره نتاج تجربة وجودية قاسية "امتلأت بالشرور والسواد، على مستوى المجتمع، أو الحياة، أو حتى حياته الشخصية التي جعلته يلزم بيته ويبدأ عزلته"(٤٣).

أما التعقيد في اللزوميات فلا يظهر بوصفه أثرًا عارضًا، وإنما يتبدّى بوصفه خيارًا أسلوبيًا واعيًا، اشتغل عليه أبو العلاء المعرّي ضمن منظومته اللغوية الخاصة، ولا سيّما في توظيف الجناس واللفظ الغريب، وقد أشار شوقي ضيف إلى هذا المنحى حين وصف الكُلف التي اتخذها المعرّي في اللزوميات، مميزًا بين كُلف دائمة وأخرى عارضة، وذكر أنَّ الدائمة "استخدامه للَّفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبًا من التعقيد"(٤٤)، ولا ينفصل هذا التعقيد عن العتبة النصّيّة التي يقدّمها عنوان الديوان نفسه، إذا يوحي منذ البداية بنسق لغوي غير مألوف، يعلن عن قصدية التقييد والتشديد، لا على مستوى الوزن فحسب، بل على مستوى البنية التعبيرية والدلالية معًا، بما يجعل التعقيد جزءًا من استراتيجية لغوية تُراكم التوتر داخل النص، وتُسهم في إنتاج ما يمكن تسميته بالفوضى اللغوية الواعية في خطاب المعرّي.

ومن مظاهر هذا التعقيد الأسلوبي ما نجده في قوله (٤٥):

مالي غَدوتُ كقاف رؤبة(٤٦) قُيّدَتْ في الدهر لم يُقدر لها إجراؤها

(٤٣) نادية بنت حسن ضيف الله الصاعدي، "أبو العلاء المعرّي والتفكير الفلسفي في لزومياته"، مجلة بحوث التربية النوعية –جامعة المنصورة، العدد ٢٦ (يوليو ٢٠١٢م): ٢٢٨.

(٤٤) شوقي ضيف، "عصر الدول والإمارات في الشام"، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠م)، ١٧١.

(٤٥) المعري، اللّزوميات، ١: ٤٤.

(٤٦) إشارة إلى قصيدة رؤبة بن العجاج.

أعْلِلتُ عِلّةَ: قال، وهي قديمةٌ أعيى الأطِبَّةَ كُلَّهُم إبْراؤُها

ويتجلى وجه التعقيد في هذا النص في تشبيه الشاعر نفسه بقاف رؤبة بن العجاج؛ إذ يُحيل المعرّي إلى حرف بعينه، في موضع بعينه، داخل بيت شعري مخصوص، بما يُنتج بنية إحالية مركبة تتجاوز التشبيه المألوف، فقاف رؤبة كما ورد في قوله (٤٧):

وقاتِمِ الأعماقِ خاوي المخترقنْ مُشتبه الأعلام لماع الخَفَقْنْ

حرفٌ محكوم بالسكون، لا نصيب له من الحركات الثلاث (الفتح والضم والكسر)، وقد قُيّد في موضعه قيدًا أبديًا، لا يتصور له تحرّك أو انتقال، ومن هنا يُسقِط المعرّي هذه الحالة الصوتية اللغوية على ذاته، ليصوغَ صورة وجودية للثبات القسري، والعزلة، والعجز عن الانفكاك من مصيرٍ مُغلَق.

ويقوم التعقيد هنا على مستويين متداخلين: تعقيدٍ لفظي يتمثل في العدول عن التشبيه بشيء محسوس أو مألوف إلى رمز لغوي صرف، لا يتجلى معناه إلا لمن يمتلك أدوات اللغة وذاكرتها العميقة؛ وتعقيدٍ أسلوبي يتمثل في طبيعة التشبيه ذاته، حيث لا تُستدعى القاف بوصفها حرفًا مُجردًا، وإنما بوصفها تاريخًا لغويًا وشاهدًا شعريًا وحالة صوتية ودلالية في آنٍ واحدٍ.

والفوضى في هذا الموضع ليست فوضى قواعد أو خلل بناء، وإنما هي فوضى مسارات التأويل؛ إذ ينحرف النص عن القراءة الخطية المباشرة، ويفرض على المتلقي شبكة من الإحالات المتداخلة: (رؤبة –البيت – القاف –التجربة الوجودية للمعرّي)، في مسار غير مباشر لا يُفضي إلى المعنى إلا عبر جهد تأويلي مضاعف، وقد كان بإمكان المعرّي أن يشبّه نفسه بشيء ظاهر في الوجود، لكنَّه آثر رمزًا لغويًا مجردًا، لا

(٤٧) رؤبة بن العجاج، بيت شعري، يُنظر: ابن عقيل، "شرح ابن عقيل"، ط٢٠، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: دار التراث، ١٩٨٠م)، ١: ٢٠.

يُفصح عن دلالته إلا لأهل اللغة والشعر، وهو ما يكشف عن نمط خاص من الفوضى اللغوية الواعية لدى شاعر كان بحقٍّ "أعجوبة الأعاجيب في حفظ شوارد اللغة وآثارها وأصولها"(٤٨).

ومن تجليات الانزياح اللغوي في اللزوميات ما يتصل بالمجاز، بوصفه أثرًا مباشرًا من آثار الفوضى اللغوية الواعية في بناء المعنى، ومن ذلك قوله(٤٩):

تكلَّم هذا الدُّهرُ بالنُّصْحِ مُعلنًا جَهارًا بما أخفته عنَّا الهوامسُ

ويقوم هذا التركيب على تشخيص الزمن عبر إسناد فعل الكلام إليه، وهو انزياح دلالي واضح يخرج بالعبارة من دائرة التقرير إلى فضاء المجاز، إذ يُنسب الفعل إلى غير فاعله الحقيقي بعلاقة سببية، فالدهر هنا لا يُقدَّم بوصفه إطارًا زمنيًا محايدًا، وإنما يُستدعى كفاعل ناطق، يحمل خبرة التجربة، ويُفصح عمَّا راكمه من محنٍ ومصائر.

وبهذا الانزياح، يتحول الزمن من خلفية صامتة إلى عنصر مشارك في إنتاج الدلالة، يُعيد صياغة وعي الشاعر بالعالم، ويكشف عن أثر التجربة القاسية التي عاشها المعرّي؛ إذ يصبح الدهر شاهدًا ناطقًا بما لم تُفصح عنه التجارب الأخرى، لا لأن تلك التجارب صامتة في ذاتها، بل لأنها لم تبلغ حدّ الكثافة الوجودية التي بلغها الشاعر، ولا يتأتى هذا المعنى إلا عبر المجاز، بوصفه أداة لغوية قادرة على احتواء فائض التجربة، ونقل ما يعجز عنه التعبير المباشر.

ومن هنا يتجلى المجاز كآلية فوضوية واعية تُعيد توزيع العلاقة بين الذات والعالم، وتُحمّل اللغة طاقة دلالية تتجاوز حدود التعيين المباشر، وهو ما يُمثّل أحد وجوه الخلق اللغوي الجديد في خطاب المعرّي، حيث تنعكس الفوضى الفكرية في صورة انزياحات

(٤٨) توفيق محمد الجوهري سبع، "عبقرية المعرّي اللغوية"، مجلة كلية اللغة العربية –جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٧ (١٩٧٧م): ١٤٦.

(٤٩) المعري، اللّزوميات، ٢: ١٦.

مجازية تُعبّر عن عقل فلسفيّ مأزوم، يشتبك مع الوجود عبر اللغة.

وفي السياق ذاته، تتجلى البنية الانزياحية في اللزوميات من خلال الثنائيات الضدية، التي تُعد من أبرز المفاهيم النقدية ذات الجذور الفلسفية، وقد انتقلت من مجال التفكير الفلسفي إلى حقل التحليل الأدبي بوصفها أداة لقراءة البنى المتقابلة داخل النص، وقد أشار بعض الدارسين إلى أن هذه الظاهرة تمثل في أصلها "ظاهرة فلسفية تم سحبها على النقد الأدبي، وأول من طبقها على الأدب البنيويون، ويُعدَّ هذا المصطلح مفردة من مفردات الثقافة الغربية"(٥٠)، غير أن حضورها في الشعر العربي سابق على هذا التأسيس الاصطلاحي الحديث، إذ تجلّت في أشكال متعددة مثل المقابلة والطباق.

ويأتي توظيف أبي العلاء للثنائيات الضدية في اللزوميات توظيفًا يتجاوز البنية البلاغية إلى أفق دلالي أكثر عمقًا، حيث لا تُستثمر هذه الثنائيات لتحقيق توازن شكلي، وإنما لتكثيف التوتر داخل الرؤية، وبناء المعنى من قلب الصراع بين الأضداد: الحياة والموت، الوجود والعدم، الإيمان والشك، الزهد والترف. وبهذا المعنى، تتحول الثنائية إلى أداة فكرية تُجسّد الفوضى اللغوية بوصفها انعكاسًا لفوضى أعمق في النظر إلى العالم، حيث لا يُنتج المعنى عبر الانسجام، بل عبر التناقض والتجاور القَلِق بين الأقطاب المتقابلة.

ولا شك أنَّ أكثر هذه الثنائيات حضورًا في لزوميات أبي العلاء المعرّي هي ثنائية الموت والحياة، إذ تتكثّف فيها رؤيته الوجودية للعالم، وتظهر بوصفها مركزًا دلاليًا تتقاطع عنده مفاهيم الألم، والراحة، والجدوى، والعدم، ويتجلّى هذا التصور بوضوح في قوله(٥١):

يـدلُّ على فضـــل الممـات وكونـه إراحةُ جِســمٍ أن مســلكه صَـعْبُ

(٥٠) يحيى عبد العظيم حسانين أبو العنين، "جدارية الروح وتهاويم الجسد في رائية المعرّي"، مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية ٢٦، العدد ٧٧ (يناير ٢٠٢٤م): ٧.

(٥١) المعري، اللّزوميات، ١: ٦٩.

ألمْ تـرَ أنَّ المجـدَ تـلـقـاكَ دُونـه شـــدائدُ من أمثالها وجبَ الرُّعبُ

وتنهض هذه الأبيات على مفارقة حادّة تقلب التراتب القيمي المألوف؛ إذ يُقدَّم الموت بوصفه راحة، وتُصوَّر الحياة مسلكًا شاقًا محفوفًا بالمخاوف والشدائد، وهي مفارقة تصادم الوعي الجمعي الذي يجعل الحياة غاية مطلقة، والموت نهاية مرهوبة، غير أن المعرّي يعيد ترتيب هذه الثنائية انطلاقًا من تجربة وجودية ترى في استمرار الحياة عبئًا، وفي نهايتها خلاصًا جسديًا ونفسيًا، ويتصاعد هذا التصور إلى حدٍّ صادم، حين يدعو إلى تهنئة أقارب الميت، لا تعزيتهم، في قوله(٥٢):

قضـــى الله أنَّ الآدميَّ مُـعـذَّبٌ إلى أن يقول العالمون به قضَـــى

فـهـنِّي وُلاةَ المـيـتِ يـومَ رحـيـلـه أصابُوا تُراثًا واستراحَ الذي مضَى

ولا يصدر هذا الموقف عن نزعة لغوية فحسب، وإنما عن فوضى فكرية عميقة أعادت تشكيل علاقة الإنسان بالحياة والموت؛ فالموت في وعي المعرّي ليس فقدًا، بل تحُققٌ للراحة التي ظلَّ الإنسان ينشدها دون أن يبلغها في حياته. ومن هنا تتداخل القيم الأخلاقية والمادية في بنية واحدة، حيث يُبرَّر الفرح بالموت، ليس لما يحققه للميت من سكون، وإنما بما يترتب عليه من انتقال الثروة إلى الأحياء، في رؤية تكشف قسوة العالم، وهشاشة المعنى الإنساني داخله.

وبهذا تتحول ثنائية الحياة والموت إلى نموذج دلالي كاشف عن المرجعية الفلسفية القلقة التي تنعكس لغويًا في خطاب المعرّي، حيث لا يُبنى المعنى على الانسجام، بل على الصدمة، ولا يتولّد من الطمأنينة، بل من قلب المفارقة والتناقض.

ويفضي ذلك إلى مفارقة ضدية أخرى تشكّل امتدادًا بنيويًا لمفارقة الحياة والموت عند أبي العلاء المعرّي، وهي ثنائية الفقر والغنى، بوصفهما تمثيلًا اجتماعيًا لاختلال

(٥٢) المعري، اللّزوميات، ١: ٦٠.

العدالة في العالم الإنساني، يقول(٥٣):

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتهُ فقيرٌ مُعرَّى أو أميرٌ مُدوَّجُ
وقد يُرزقُ المجدودُ أقواتَ أمَّةٍ ويُحرمُ قوتًا واحدٌ وهو أحوجُ
ولو كانت الدنيا عروسًا وجدتُّها بما قتلت أزواجها لا تُزوَّجُ

وتقوم هذه الثنائية على مفارقة صادمة تُعرّي بنية المجتمع في عصر المعرّي، حيث يتجاور الفقر المدقع مع الترف المفرط، دون أن تحكم العلاقة بينهما معايير الاستحقاق أو الجهد، فيتحول الغنى إلى قرين المصادفة، والفقر إلى قدرٍ يُلاحق الأجدر، ولا تُقدَّم هذه الصورة بوصفهما توصيفًا اجتماعيًا محايدًا، بل باعتبارها دليلًا شعريًا على عالم مختلّ التوازن، تتفكك فيه العلاقة بين العمل والجزاء، وبين القيمة والمكانة.

ومن هنا تُسهم ثنائية الفقر والغنى في ترسيخ مفارقة الموت والحياة في فلسفة أبي العلاء، إذ لا يعود تفضيل الموت نزعة لغوية أو وجدانية عابرة، وإنما أفقًا فلسفيًا للخلاص من عالمٍ تقوم أنظمته على المفارقة واللاعدالة، فالحياة – في هذا السياق– تُعاد قراءتها بوصفهما فضاءً للحرمان والاختلال، في حين يُستعاد الموت رمزًا للراحة والانفصال عن نظام لا يمنح الإنسان ما يستحقه بقدر ما يُخضعه لمنطق المصادفة والقهر.

وعلى الرغم من التنافر الظاهر في هذه الثنائيات، فإن انتظامها داخل شبكة دلالية واحدة يُنتج نوعًا من التوازن الداخلي، تتجلّى فيه فلسفة المعرّي القائمة على كشف التناقض لا حلّه، وعلى مساءلة القيم لا تثبيتها، وهو ما يمنح هذا التناقض انسجامه العميق داخل بنية الخطاب الشعري، ويجعل الفوضى اللغوية هنا أداة وعي لا مظهر اضطراب.

وبذلك يتبيّن أن الفوضى اللغوية في لزوميات أبي العلاء المعرّي لا تمثل خروجًا

(٥٣) المعري، اللّزوميات، ١: ١٩١.

على نظام اللغة أو انكسارًا في بنيتها، بل هي ممارسة واعية لإعادة توجيه هذا النظام عبر بنية انزياحية تتجلى في أنماط متعددة من التقابل الدلالي، يأتي التضاد في مقدمتها بوصفه صورة جزئية ضمن بنية أوسع من المفارقة، إلى جانب الحذف والتعقيد، بما يسمح بإنتاج دلالة متوترة ومفتوحة على التأويل، كما أتاحت هذه الفوضى للمعرّي أن يُحمِّل لغته رؤيته الفلسفية للعالم، وأن يحوّل البنية الأسلوبية إلى أداة كشف لا زينة لفظية، فغدت اللغة نفسها فضاءً للصراع بين الثبات والتحوّل، وبين المعنى الموروث والمعنى المعاد تشكيله داخل تجربة شعرية عميقة ومركّبة.

المبحث الثالث: الفوضى الجمالية - "المفارقة والنظام الخفي"

لا تُفهم المفارقة في خطاب أبي العلاء المعرّي بوصفها مجرد شكل بلاغي أو محسّنٍ أسلوبي، بل باعتبارها عقدًا تأويليًا بين النص والقارئ، يقوم على ازدواج الدلالة وتوليد المعنى عبر التوتر بين الظاهر والمضمر؛ إذ إنها تقول شيئًا "وتقصد النقيض الذي لا يلبث أن نتبين حقيقته، وهي ذات أهمية خاصة بحكم أنها لغة شاعرة لا مجرد محسن بديعي"(٥٤)، ومن ثمّ تنطوي المفارقة على طاقة دلالية مزدوجة تؤدي وظيفة معرفية تتجاوز التزيين اللفظي إلى إحداث صدمة دلالية تُحفّز الوعي، لتغدو بذلك بنية دلالية تنتج المعنى من داخل التوتر القيمي، حيث لا تكتفي بعرض التقابل، بل تتجاوزه إلى إعادة تشكيله في أفق تأويلي أوسع.

وتتجسّد هذه الوظيفة بوضوح في لزوميات أبي العلاء، حيث تتحول المفارقة إلى بنية معرفية فاعلة لا تكتفي بعرض الأضداد، بل تُنتج معنى ثالثا يتشكّل في وعي الشاعر وفلسفته، ويُعاد بناؤه داخل نسيج شعري مشحون بالتوتر القيمي، كما يتجلى في قوله(٥٥):

ألم تعجَب من الشيخ المعنَّى ... يقوم على انتحاء وارتعاشِ

يكونُ عن الصلاةِ له قُعودُ ... ويمشي في المفاوز للمعاشِ

وتقوم المفارقة أعلاه على تقابل حادّ بين العجز عن النهوض لأداء الصلاة والتزوّد للآخرة، والنشاط المفرط في السعي وراء المعاش وشؤون الدنيا؛ فالشيخ الذي يتثاقل عن

(٥٤) سعيد علوش، "معجم المصطلحات الأدبية"، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م)، ١٦٢.

(٥٥) المعري، اللّزوميات، ٢: ٥٩.

الفعل الأعلى قيمة هو ذاته الذي يقطع المفاوز طلبًا للرزق، في صورة تكشف خللًا عميقًا في ترتيب القيم.

ولا تنحصر المفارقة في السخرية من فرد بعينه، بل تتخذ بعدًا رمزيًا يُشخّص اختلالًا جماعيًا، حيث يُستثمر الجهد في الدنيا ويُهمَل ما يُعلَن نظريًا غايةً للوجود، في ازدواج فاضح بين خطاب إيماني وسلوك عملي مناقض.

ومن ثمّ تتبدّى الفوضى الجمالية هنا بوصفها آلية واعية، تنبع من توتر داخلي بين القيم المعلنة والممارسة الفعلية، وتغدو المفارقة أداة كشف نقدي تُسائل البنية الأخلاقية والاجتماعية من داخلها، لا مجرد تضاد أسلوبي عابر.

وثمة أيضا قوله(٥٦):

نفوسٌ للقيامة تشرئبُّ وغيٌّ في البطالة مُتلئبُّ

تأبَّى أن تجيءَ الخيرَ يومًا وأنتَ ليوم غفرانٍ تئبُّ

فلا يغررك بِشرٌ من صديق فإنّ ضميره إحنٌ وخَبُّ

وإنَّ الناسَ طفلٌ أو كبيرٌ يشيبُ على الغواية أو يشبُّ

وتُجسِّد هذه الأبيات مفارقة جمالية تقوم على الانفصام بين التطلّع المعلن إلى الآخرة والاستعداد النفسي لها، وبين السلوك العملي الغارق في التقاعس والبطالة؛ فالنفس تشتاق ليوم الغفران، لكنها تعجز عن ترجمة هذا الشوق إلى فعلٍ أخلاقي في حاضرها، وهو تناقض يقرأه المعرّي بوصفه خللًا عميقًا في البنية القيمية للإنسان والمجتمع، لا حالة عارضة.

(٥٦) المعري، اللّزوميات، ١: ٧٩.

ومن خلال هذه المفارقة، تتبدّى الفوضى الجمالية في لزوميات أبي العلاء قائمة على ركيزتين حاكمتين: الله عزَّ وجلَّ ثم العقل؛ إذ إن القطيعة معهما تفسّر اضطراب علاقة الإنسان بذاته وبالآخرين، ويكشف المعرّي، بمرارة واعية، تناقض الناس بين ترقّبهم للقيامة وعجزهم عن الالتزام العملي بمقتضياتها، فينتهي إلى تحذير صارم من الاغترار بالبشر والاطمئنان إلى ظواهرهم، حيث يرى الغواية سمةً شائعة قد ترافق الإنسان في جميع أطوار عمره.

وبهذا المعنى، لا تُختزل المفارقة في كونها تضادًا لغويًا أو لعبة بلاغية، بل تتأسس بوصفها نتاجَ عقلٍ فلسفيّ يعيد ترتيب العلاقة بين القيم والوجود، ويحوّل التناقض الاجتماعي إلى بنية جمالية كاشفة داخل الخطاب الشعري. ومن هذا الأفق، تتصل المفارقة في شعر المعرّي باتساق تجربته الحياتية وصرامتها الأخلاقية، حيث يغدو التوتر بين القول والفعل، والمعلن والمضمر، مادةً جمالية تتكثف في بنيته الشعرية، وهو ما يفسّر كثافة حضورها في خطابه، كما عبّر بعض الدارسين عن ذلك بقوله: "فقد أخلص المعرّي لإبداعه، ولم ينشغل بما سواه، ولم يتزوج فتشغله امرأة وتفرض عليه الإخلاص لها، ولم يشغله الولد والذرية فيتفرغ لتربيتهم، ولم تشغله شهواته؛ فقد شغلته سجُونه عن هذا الأمر، ولم يشغله حب المال والدنيا فلم يتسكع قصور الملوك والأمراء، فقد منحه الله نفسًا قوية سمت به عما انغمس فيه معاصروه"(٥٧)، وتتجلى هذه الصلة في أن البنية الجمالية للمفارقة لا تنفصل عن أفقه الفكري وتجربته الوجودية، بل تتكثف فيها.

وقد أسهمت عزلة أبي العلاء المعرّي في ترسيخ الفوضى بوصفها محورًا تأسيسيًا

(٥٧) شعيب خلف، "بلاغة المفارقة في إنسانيات أبي العلاء المعرّي"، مجلة فكر وإبداع، العدد ٧٢ (ديسمبر ٢٠١٢م): ١٤٠.

في لغته وفلسفته وإبداعه؛ إذ لزم بيته قرابة تسعٍ وأربعين سنة، بدوافع متداخلة، في مقدمتها نزعة فطرية دلّ عليها شعره، وذهاب بصره الذي عمّق حياءه ونفوره من الاختلاط خشية السخرية أو الازدراء، ولم تكن هذه العزلة انقطاعًا سلبيًا، بل فضاءً واعيًا للتأديب الذاتي والتفكير الحر، نضجت فيه حكمته، وصفا عقله، وتشكّلت رؤيته النقدية للمجتمع، وهو ما انعكس جليًا في شعره بوصفه مرآةً لصفاء العقل وتعاليه عن الدنايا، يقول(٥٨):

أنســـيـتَ حـقَّ الله أم أهملتـه ... شَـرٌّ مِن النَّاسِـي هو المتْنَاسِـي

تبغي الطهـارةَ في الحيـاة وإنمـا ... أجســـادُنا جُـَملٌ مِنَ الأدْنَاسِ

إنْ صَـــحَّ عقلُـكَ فـالتفرُّد نعمـةٌ ... ونوى الأوانسِ غـايـةُ الإينـاسِ

وتكشف هذه الأبيات توتّرًا عميقًا بين ادعاء الطهارة وحدود الجسد الإنساني، وهو توتّر لا يطرحه المعرّي وعظيًا، بل يصوغه في بنية جمالية تأملية تُجسّد وعيه بالفجوة بين المثال والواقع، ومن ثمّ تتشكّل فلسفة المعرّي في ضوء مرجعية عليا يستحضرها في وعيه، يتقدّم فيها النظر العقلي بوصفه أداة للفهم والتأمل، وتصبح العزلة شرطًا معرفيًا لإعادة النظر في العالم لا هروبًا منه.

وتُعدّ هذه العزلة من أبرز دوافع الفوضى الفكرية في شعره؛ إذ أطلقت طاقة التفكير، ووسّعت أفق التأمل في أسئلة الكون والإنسان والإيمان، بعد تجربة اجتماعية كشفت له آفات الجماعة، فآثر الانفراد بوصفه تفردًا أخلاقيًا ومعرفيًا أفرز هذه الفوضى

(٥٨) المعري، اللّزوميات، ٢: ٤٩.

المنتِجة، يقول (٥٩):

إذا انفرد الفتى أُمِنَتْ عليه ... دنايا ليس يُؤْمِنُها الخِلاطُ

فلا كذبٌ يُقال ولا نميمٌ ... ولا غلطٌ يُخاف ولا غِلاطُ

وهكذا تتجلّى العزلة عند أبي العلاء لا بوصفها نفيًا للعالم، بل نظامًا شخصيًا بديلًا عن نظام اجتماعي مأزوم، تُعاد من خلاله صياغة العلاقة بين الفكر والقيم، وتتحول فيه الفوضى الظاهرة إلى نظام خفيّ يحكم التجربة الشعرية من الداخل.

كذلك يؤكد المعرّي هذا المنحى في قوله (٦٠):

الحكم لله؛ فالبثْ مفردًا أبداً ... ولا تكن بصنوف الناس مُختَلِطًا

وتتجلّى العزلة عند المعرّي، في هذه الدعوة الصريحة إلى التفرد، بوصفها اختيارًا واعيًا لا اضطرارًا وجوديًا؛ إذ آثر لزوم بيته طلبًا لصفاء العقل، واتقاءً لاختلاطٍ رأى فيه نفاقًا وسطحيّةً وإعادة إنتاجٍ للوهم، ولم يكن نفوره من الناس كراهيةً لذواتهم، بل رفضًا لمنظومة اجتماعية مختلّة تُقصي الحكمة وتكافئ الجهالة، ومن ثمّ لا تُفهم عزلته انسحابًا سلبيًا، بل نظامًا شخصيًا بديلًا في مواجهة نظام اجتماعي مأزوم، يُعيد فيه ترتيب علاقته بالعالم على أساس التأمل والعقل، ويحوّل الفوضى الخارجية إلى اتساق داخلي، وهو ما يمكن تسميته بالنظام الخفي الحاكم لرؤيته الجمالية والفكرية.

ويتكشّف هذا النظام الخفي في اللزوميات لا في البنية الدلالية وحدها، بل في الإيقاع والتكرار أيضًا، بوصفهما آليتين منظِّمتين للمعنى داخل فضاء النص، على

(٥٩) المعري، اللّزوميات، ٢: ٧٣.

(٦٠) المعري، اللّزوميات، ٢: ٧٤.

مستوى البيت والمقطع معًا، ومن ذلك قوله(٦١):

لـقـد عـلـم الله رب الـكـمـالِ بِـقِـلَّـةِ عِـلْـمِـي وديـني ومـالِي
وأنَّ الـتـجـمَّـل قـد ضـــاق بِي فـكـيـفَ أُنافـسُ أهـلَ الجَـمَـالِ
أريـــد الإناخـــة في مـــنـــزِلٍ وقَـدْ حُـدِيَـتْ لِسِـــــواهُ جِمَـالِي
لقـد خـاب من يبتغي نُصـــرتي وعـاجـزةٌ عـن يمـيـني شِمـالِي
هـويـتُ انـفـرادِيَ كَـيْـمَـا يخِـفُّ عَمَّنْ أُعـاشِـــرُ ثِقْـلَ احْتِمَـالِي

وتُنتج هذه الأبيات إيقاعًا داخليًا مشبعًا بالحزن، يتأسس على تكرار ياء المتكلم، بما يوحي بالانكفاء على الذات والإنصات للصوت الداخلي في فضاء العزلة، ويتعزّز ذلك باتساقه مع القافية القائمة على اللام المكسورة، فتتشكل بنية إيقاعية مغلقة تُعمّق الإحساس بالضيق والانحصار، ولا يقف هذا الإيقاع عند حدّه الموسيقي، بل ينهض بوظيفة دلالية، إذ تُحيل كثافة ضمير المتكلم إلى مسار من التجرد المتدرّج: من المال والقبول الاجتماعي إلى العجز الجسدي والنفسي، وهكذا يتحول التكرار من تقنية أسلوبية إلى آلية تنظيم داخلية تُعيد ترتيب التجربة الشعورية، وتحوّل الفوضى الوجودية إلى نظام إيقاعي منضبط يُجسّد فلسفة المعرّي في التفرد والانفصال عن العالم.

وفي هذا الإطار، لا تحضر الفوضى والشك في اللزوميات بوصفهما تيهًا أو اضطرابًا، بل باعتبارهما آلية معرفية عقلية لصوغ السؤال ومساءلة الوجود، كما يتجلى بوضوح في قوله(٦٢):

(٦١) المعري، اللّزوميات، ٢: ٢٥٢.
(٦٢) المعري، اللّزوميات، ٢: ١٤٨.

عليكَ بتقوى الله في كل حالة ... فإنَّ الذي نصَّ الرِّكابَ سيُبْرِكُ

إذا مرَّتِ الأوقاتُ حُرِّكَ ساكنٌ ... وسكِّن في أضعافها المتحرِّكُ

تباينَ في الدين المقالُ؛ فجاحدٌ ... وصاحبُ توحيدٍ وآخرُ مُشرِكُ

وتُعْجِزُ دُنياكَ القويَّ يَرُومُها ... ويَطْلُبُ أُخْرَاه الضَّعيفُ فيُدركُ

وتنهض هذه الأبيات في مقام وصية جامعة تُعيد ترتيب علاقة الإنسان بالكون والمآل، وتكشف تفاوتًا وجوديًا في مواقف الناس من الدين والدنيا، يتجسّد سلوكيًا في انقسامهم بين مغترٍّ بالدنيا مسلوب الإرادة، وعاقلٍ أدرك حقيقتها فأعرض عنها وإن بدا ضعيف الظاهر قوي البصيرة.

ومن هذا الأفق، تتشكّل الفوضى في اللزوميات مسارًا للتطهير العقلي الواعي في زمن اختلّت فيه القيم وتنازعت فيه العقول، فتغدو أداة لإعادة تصحيح التصورات وتحرير الفكر من الأوهام، وبهذا تتأسس المفارقة في خطاب المعرّي ضمن نظامٍ خفيّ يعيد ترتيب القيم من داخل التناقض، ويحوّل الفوضى الظاهرة إلى اتساقٍ دلالي تحكمه سلطة العقل والعزلة ومساءلة المسلّمات، بما يجعل التجربة الشعرية مسار كشفٍ لا زخرفًا بلاغيًا.

الخاتمة:

وينتهي هذا البحث إلى قراءةٍ ترى أن ما يُتداول في لزوميات أبي العلاء المعرّي بوصفه فوضى أو شكًّا يمكن النظر إليه في إطار نسق جمالي ومعرفي واعٍ، يتشكّل من خلاله نظام خفي يحكم بنية الخطاب الشعري، وقد بيّنت القراءة التحليلية أن المفارقة عند المعرّي تتجاوز حدود وظيفتها البلاغية لتغدو أداة تأويلية تعيد ترتيب القيم والمعاني، وتحوّل التناقض الظاهري إلى آلية للكشف وبناء الدلالة، ضمن أفق تأويلي يجاور القراءات التي تعاملت مع هذه الظواهر بوصفها اضطرابًا فكريًا أو قلقًا وجوديًا.

كما أظهر البحث أن هذه الفوضى الجمالية تصدر عن عقل فلسفي ناقد، تتولّد من وعي حاد بتناقضات الإنسان والمجتمع، وتتحول داخل النص إلى بنية منتظمة تضبط الإيقاع والصورة والدلالة، وتنتج اتساقًا داخليًا يتجاوز منطق الثنائيات المبسّطة؛ وبذلك يمكن النظر إلى الفوضى في اللزوميات بوصفها استراتيجيةً جماليةً ومعرفيةً، لا موقفًا سلبيًا من الوجود.

وتفتح هذه القراءة أفقًا تأويليًا جديدًا لقراءة شعر أبي العلاء، يُسهم في مراجعة التصنيفات النقدية السائدة، ويعزّز فهم العلاقة بين العقل والشعر في التراث العربي، مع ما يتيحه ذلك من إمكانات بحثية لاحقة تمتد إلى نصوص تراثية أخرى ضمن منظور نقدي بينيّ تتقاطع فيه المقاربات الجمالية والفلسفية والبلاغية.

المصادر والمراجع:

ابن فارس، أحمد بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، (القاهرة: دار المعارف، د.ت).

الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط، د.ت).

الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق إحسان عباس وآخرين، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

أبو تمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، (القاهرة: دار المعارف، ط٤، د.ت).

أبو العنين، يحيى عبد العظيم حسانين، جدارية الروح وتهاويم الجسد في رائية المعرّي: دراسة في الثنائيات الضدية، مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، جامعة المنوفية، مج ٢٦، ع ٧٧ (يناير ٢٠٢٤م).

بشار بن برد، ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، (الجزائر: وزارة الثقافة، ٢٠٠٧م).

بلقا، إلياس، الوجود بين السببية والنظام، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩م.

بوعزّة، محمد، هيرمينوطيقا المحكي: النسق والكاوس في الرواية العربية، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، (د.ت).

الجوهري سبع، توفيق محمد، عبقرية المعرّي اللغوية، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٧ (١٩٧٧م).

الحجرية، ابتسام بنت عبد الله بن مبارك، الفوضى الانفعالية في شعر المتنبي، رسالة ماجستير، جامعة نزوى، سلطنة عمان، ٢٠١٠م.

خلف، شعيب، بلاغة المفارقة في إنسانيات أبي العلاء المعرّي في اللزوميات، مجلة فكر وإبداع، رابطة الأدب الحديث، ج ٧٢ (ديسمبر ٢٠١٢م).

زيدان، عبد القادر، قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعرّي، مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦م.

سيسه، محمد ألف، مظاهر التشاؤم في شعر أبي العلاء المعرّي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد ٢٣ (سبتمبر ٢٠٢٣م).

شرف الدين، خليل، أبو العلاء المعرّي مبصر بين عميان: في سبيل موسوعة فلسفية، القاهرة: منشورات دار مكتبة الهلال، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الصاعدي، نادية بنت حسن ضيف الله، أبو العلاء المعرّي والتفكير الفلسفي في لزومياته، مجلة بحوث التربية النوعية، جامعة المنصورة، ع ٢٦ (يوليو ٢٠١٢م).

ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات في الشام، القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٩٠م.

عبد الحميد، محمد محيي الدين، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، القاهرة: دار التراث، ط٢٠، ١٤٤٠هـ/١٩٨٠م.

عبد النظير، محمود معروف، شعرية المفارقة وأثرها على قلق الوجود والفناء عند أبي العلاء المعرّي، مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس (أكتوبر ٢٠١٩م).

علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

علوش، سعيد، نظرية عمائية أم استراتيجية معرفية، مجلة علامات، العدد ١٣ (٢٠٠٠م).

غرايبة، نهال عبد الله عبد الرحمن، جماليات الفوضى ودلالاتها في الشعر العباسي: أبو نواس وأبو تمام والمتنبي، أطروحة دكتوراه، الجامعة الهاشمية، الأردن، ٢٠٢٠م.

فيصل، سوزان ناجي، الفوضوية وتمثلاتها في فنون ما بعد الحداثة: دراسة تحليلية، مجلة نابو للبحوث والدراسات، العدد ٥٢ (تشرين الأول ٢٠٢٥م).

كيليطو، عبد الفتاح، أبو العلاء المعرّي: أو متاهات القول، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ٢٠٠٠م.

مباركة، مأمون تيسير محمد، قضايا الحذف ودلالته في شعر أبي العلاء المعرّي، مجلة البلقان للبحوث والدراسات، جامعة عمان الأهلية، مج ٢٣، ع ١ (٢٠٢٠م).

مرتاض، عبد الملك، شعرية القصيدة: قصيدة القراءة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٤م.

المعرّي، أبو العلاء، اللزوميات، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، (القاهرة/بيروت: مكتبة الخانجي – مكتبة الهلال، د.ت).

الموافي، محمد عبد العزيز، حركة التجديد في الشعر العباسي، القاهرة: مطبعة التقدم، د.ت.

Bibliography

Ibn Faris, Ahmad bin Zakariya. "Maqaayees Al-Lughah". Investigated by Abdul-Salaam Muhammad Haaroon. (Beirut: Dar Al-Fikr, n.d., 1399 AH / 1979).

Ibn Manzoor, Muhammad bin Mukarram. "Lisaan Al-Arab". Investigated by Abdullah Ali Al-Kabeer et al. (Cairo: Dar Al-Ma""aarif, n.d.).

Al-Azhari, Muhammad bin Ahmad. "Tahdheeb Al-Lughah". Investigated by Ahmad Abdul-Aleem Al-Bardooni. (Cairo: Al-Daar Al-Misriyyah lil-Ta""leef wal-Tarjamah, n.d.).

Al-Asfahani, Abu Al-Faraj."Al-Aghaani". Investigated by Ihsaan Abbaas et al. (3rd edition. Beirut: Dar Saadir, 1429 AH / 2008).

Abu Tammaam."Deewaan Abi Tammaam bi-Sharh Al-Khateeb Al-Tabreezi". Investigated by Muhammad, Abduh, Azzaam. (4th edition. Cairo: Dar Al-Ma'aarif, n.d.).

Abu Al-Aneen, Yahya Abdul-Azeem Hassanein. "Jidaariyyat Al-Rooh wa-Tahaweem Al-Jasad fi Raaiyyat Al-Ma'arri: Diraasah fi Al-Thuna'iyyaat Al-Diddiyyah". Markaz Al-Khidmah Research Journal (in Arabic), University of Menoufia 26 (77), (January 2024).

Bashshaar bin Burd. "Deewaan Bashshaar bin Burd". Investigated by Muhammad Al-Taahir bin Aashoor. (Algeria: Ministry of Culture, 2007).

Balqaa, Ilyaass."Al-Wujood bayna Al-Sababiyyah wal-Nithaam". (1st edition. United States: Al-Ma'had Al-Aalami lil-Fikr Al-Islaami, 2009).

Bou-azza, Muhammad."Heermeenooteeqaa Al-Mahki: Al-Nasaq wal-Kaaws fi Al-Riwaayah Al-Arabiyyah". (Beirut: Muassasat Al-Intishaar Al-Arabi, n.d.).

Al-Jawhari Saba, Tawfiq Muhammad. Abqariyyat Al-Maarri Al-Lughawiyyah". College of Arabic Language Journal (in Arabic), Imam Muhammad bin Saud Islamic University 7, (1977).

Al-Hijriyyah, Ibtisaam bint Abdullah bin Mubaarak. "Al-Fawdaa Al-Infi-aaliyyah fi Shi""r Al-Mutanabbi". MA Thesis, University of Nizwa, Sultanate of Oman, 2010.

Khalaf, Shuaib."Balaaghat Al-Mufaaraqah fi Insaaniyyat Abi Al-Alaa, Al-Ma-arri fi Al-Luzoomiyyaat". Fikr wa-Ibda, Journal (in Arabic) 72, (December 2012).

Zaydaan, Abdul-Qaadir."Qadaayaa Al-Asr fi Adab Abi Al-Alaa, Al-Ma-arri. (1st edition. Egypt: Dar Al-Wafaa, lil-Tibaaah wal-Nashr, 2006).

Seessah, Muhammad Alf."Mazahir Al-Tashaaum fi Shir Abi Al-Alaa Al-Maarri". Hawliyaat Al-Turaath Journal (in Arabic) 23, (September 2023).

Sharaf Al-Deen, Khaleel."Abu Al-Alaa Al-Maarri Mubsir bayna Umyaan: fi Sabeel Mawsooah Falsafiyyah". (Cairo: Manshooraat Dar Maktabat Al-Hilaal, 1405 AH / 1985).

Al-Saaidi, Naadiyah bint Hasan Dayf Allah."Abu Al-Alaa Al-Maarri wal-Tafkeer Al-Falsafi fi Luzoomiyyaatih". Buhouth Al-Tarbiyah Al-Nawiyyah Journal (in Arabic) 26, (July 2012).

Daif, Shawqi. Asr Al-Duwal wal-Imaraat fi Al-Shaam". (2nd edition. Cairo: Dar Al-Maaarif, 1990).

Abdul-Hameed, Muhammad Muhyi Al-Deen."Sharh Ibn Aqeel ala Alfiyyat Ibn Maalik". (20th edition. Cairo: Dar Al-Turaath, 1440 AH / 1980).

Abdul-Nazeer, Mahmud Maroof. "Shiriyyat Al-Mufaaraqah wa-Atharuhaaala Qalaq Al-Wujood wal-Fanaa,inda Abi Al-Alaa, Al-Maarri". Al-Qiraaah wal-Marifah Journal (in Arabic), (October 2019).

Alloosh, Saeed."Mujam Al-Mustalahaat Al-Adabiyyah". (1stedition. Beirut: Dar Al-Kitaab Al-Arabi, 1405 AH / 1985).

Alloosh, Saeed. "Nadhariyyat Amaaiyyah am Istrateejiayyah Marifiyyah?". Alaamaat Journal (in Arabic) 13, (2000).

Ghraaybah, Nihaal Abdullah Abdul-Rahmaan. "Jamaliyyat Al-Fawdaa wa-Dalaalaatuhaa fi Al-Shir Al-Abbasi: Abu Nuwaas wa-Abu Tammaam wal-Mutanabbi". PhD Dissertation, The Hashemite University, Jordan, 2020.

Faysal, Suzaan Naaji."Al-Fawdaawiyyah wa-Tamaththulaatuhaa fi Funoon Maa Bad Al-Hadaathah: Diraasah Tahleeliyyah". Naaboo Journal for Research and Studies (in Arabic) 52, (October 2025).

Kilitto, Abdul-Fattaah."Abu Al-Alaa Al-Maarri: Aw Mataahaat Al-Qawl". (1st edition. Casablanca: Dar Toobqaal lil-Nashr, 2000).

Mubaarakah, Mamoon Taysir Muhammad."Qadaayaa Al-Hadhf wa-Dalaalatuh fi Shir Abi Al-Alaa Al-Maarri". Al-Balqaan Journal for Research and Studies (in Arabic) 23 (1), (2020).

Murtaad, Abdul-Malik."Shiriyyat Al-Qaseedah: Qaseedat Al-Qiraaah". (1st edition. Beirut: Al-Muassasah Al-Jaamiiyyah lil-Diraasaat wal-Nashr, 1994).

Al-Maarri, Abu Al-Alaa."Al-Luzoomiyyaat". Investigated by Ameen Abdul-Azeez Al-Khaanji. (Cairo / Beirut: Maktabat Al-Khaanji – Maktabat Al-Hilaal, n.d.).

Al-Mawaafi, Muhammad Abdul-Azeez."Harakat Al-Tajdeed fi Al-Shir Al-Abbasi". (Cairo: Matbaat Al-Taqaddum, n.d.).


الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
١٣٨١
١٩٦١

The Islamic University Journal of Arabic Language and Literature



Issue : 20

Apr - Jun 2026

part 1